أسباب

رد الحق الواضح..


بسم الله الرحمن الرحيم

أسباب
رد الحق الواضح..

تأليف

د. مشاري سعيد المطرفي

إهداء

إلى العلماء والدعاة والمصلحين والمفكرين الذين حملوا همَّ الإسلام وهمَّ أمة الإسلام..

إلى الرجال الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً..

إلى الرجال الذين صدعوا بالحق فسجنوا وعذبوا وقتلوا..



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

هذا كتاب «**أسباب رد الحق الواضح..**» جمعت فيه تسعة أسباب تجعل من صاحبها يردُّ الحق الواضح الثابت بالكتاب والسُّنَّة، وهي الجهل والحسد والكِبر والهوى والظلم والتقليد والمداهنة والتعصُّب وتقديم العقل على النقل.

كتبته ناصحاً ومحذراً ومنبها للمسلمين من الوقوع فيها، بعدما انتشر بين صفوف عامة المسلمين من يردّ الحق الواضح البيّن الذي لامِرية فيه ولا غبش، الثابت بكتاب الله وبسُنَّة نبيه ﷺ، إما لجهله وقلّة علمه، وإما لحسده لصاحب الحق، وإما لكِبره الذي يمنعه عن العدول عن رأيه وقبول الحق، وإما لاتباعه للهوى الذي يُعميه عن راية طريق الحق والصواب، وإما بسبب الظلم بحيث يرد الحق بسبب بغضه لقائله، وإما بسبب تقليده لغيره من علماء السوء أو الجهلة، وإما بسبب مداهنته للطواغيت والظلمة، وإما بسبب تعصّبه لمذهب من المذاهب، أو لإمام من الأئمة؛ بحيث يحصر الحق فيه، وإما بسبب تقديمه العقل على النقل الذي يجعله يردّ نصوص الكتاب والسُّنَّة بدعوى مخالفتها للعقل.

أسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، قبول هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتب له القبول، وينفع به المسلمين.

د. مشاري سعيد المطرفي

الكويت. مدينة سعد العبدالله

للتواصل واتساب : ٠٠٩٦٥٦٦٧٨٣٧١٦



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾(٣).

أما بعد: فإن الله سبحانه هو الحق، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾(٤).

ودينه حق، ورسله حق، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾(٥).

وقد أنزل الله الكتب وأرسل الرسل بالحق، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾(٦).

وأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يعلن للناس أنه جاءهم بالحق، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾(٧).

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٢٠١.

(٢) سورة النساء، آية: ١.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٠٧ – ١٧.

(٤) سورة الحج، آية: ٦.

(٥) سورة التوبة، آية: ٣٣.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢١٣.

(٧) سورة يونس، آية: ١٠٨.

وقد قام الرسول ﷺ بالحق، ودعا الناس إليه، ورغّبهم فيه، وحثّهم عليه، وحذّرهم من الباطل، ونهاهم عنه، ولم يمت ﷺ حتى أكمل لهم الدين، وأتمّ عليهم النعمة، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾(1).

وبلّغ ﷺ الحق للناس أجمعين، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك، وما من طائر يطير بجناحيه إلا وقد ذكر لهم منه علماً، وهدى الله به الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾(2) (3).

وبيّن ﷺ أن من أعرض عن الحق وردّه، فإن العار والشنار والباطل والضلال مصيره، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾(4).

والحق واحد لا يتعدّد؛ لأن مصدره واحد، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾(5)، وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠﴾(6)، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾(7).

وهو واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، قال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾(8)، وقال: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾(9)،

---

(1) سورة المائدة، آية: ٣.

(2) سورة البقرة، آية: ٢١٣.

(3) معارج القبول، لحافظ حكمي: ١/ ٥٧.

(4) سورة يونس، آية: ٣٢.

(5) سورة الكهف، آية: ٢٩.

(6) سورة آل عمران، آية: ٦٠.

(7) سورة الرعد، آية: ١.

(8) سورة النمل، آية: ٧٩.

(9) سورة الأحقاف، آية: ٣٠.

وقال النبي ﷺ: «**قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»[1].

والحق تام كامل لا نقص فيه، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[2]، وقال ﷺ: «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم**»[3].

وهو قوي غالب، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[4]، وقال: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾[5]

وهو راسخ ثابت سالم من التناقض أو الاضطراب أو الاختلاف، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[6].

وهو الحجة الفاصلة عند النزاع والاختلاف، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾[7]، وهو الحجة الدامغة، والدليل القاطع، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[8]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[9].

---

(١) رواه ابن ماجه: ١/ ١٦] ٤٣، من حديث العرباض بن سارية، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٤٣٦٩.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣.

(٣) رواه مسلم من حديث عمرو بن العاص.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ١٨.

(٥) سورة الإسراء، آية: ٨١.

(٦) سورة النساء، آية: ٨٢.

(٧) سورة الأنعام، آية: ٥٧.

(٨) سورة الأنعام، آية: ١٤٩.

(٩) سورة البقرة، آية: ١١١.

وقد أخذ الحق سبحانه العهد على خلقه وهم في ظهر أبيهم الأول آدم – عليه السلام – على قبول الحق، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[١].

وفطر النفوس وجبلها على قبوله، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[٢].

قال المعلمي: «نص الله تبارك وتعالى في كتابه على أنه خلق الناس على الهيئة التي ترشحهم لمعرفة الحق»[٣].

وجاء في الحديث عنه ﷺ قال: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه**»[٤].

قال ابن رجب: «الإنسان يولد مفطوراً على قبول الحق»[٥]، فكل الناس لديهم ما يقتضي معرفة الحق، ومحبتهم له، قال عمر بن عبد العزيز: «عليك بدين الأعراب والصبيان في الكتاب، وعليك بما فطرهم الله عليه فإن الله فطر عباده على الحق»[٦].

وقال ابن القيم: «إن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة به، والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب والباطل، والنفور عنه، والريبة به، وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحبت غيره»[٧].

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٢.

(٢) سورة الروم، آية: ٣٠.

(٣) القائد إلى تصحيح العقائد، للمعلمي، ص: ٤٠.

(٤) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة.

(٥) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ٢/ ٣٩.

(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٥/ ٢٦٠.

(٧) مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٣٧.

وقد بعث الله الرسل بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتحويل الفطرة وتغييرها، وأما أعداء الرسل فيريدون أن يغيّروا فطرة الله[1]، كما يدل على ذلك قوله ﷺ في الحديث القدسي: «**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[2].

ورد الحق الواضح البيّن، الثابت بكتاب الله وبسُنّة نبيه ﷺ، من كبائر الذنوب التي يُخشى على صاحبها أن يبتليه الله بالمضلات قال تعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿٦٣﴾﴾[3].

وردّ الحق والتلبيس على الناس فيه خيانة لله ولرسوله ﷺ وتضليل للناس، قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٢٧﴾﴾[4].

وردّ الحق أو كتمانه والتلبيس على الناس من صفات اليهود التي ذمّها الله سبحانه وتعالى وحذّر منها في كتابه العزيز حيث قال تعالى: ﴿**وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٤٢﴾﴾[5].

والأسباب التي تجعل الإنسان يرد الحق الواضح البيّن، الثابت بكتاب الله وبسُنّة نبيه ﷺ، كثيرة ومتعدّدة، وقد ذكرت في هذا الكتاب أبرز وأغلب هذه الأسباب.

وقد قسّمت هذه الدراسة إلى تسعة مباحث:

المبحث الأول: الجهل.

المبحث الثاني: الهوى.

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٥/ ٢٦٠.

(٢) رواه مسلم من حديث عياض بن حمار.

(٣) سورة النور، آية: ٦٣.

(٤) سورة الأنفال، آية: ٢٧.

(٥) سورة البقرة، آية: ٤٢.

المبحث الثالث : الحسد.

المبحث الرابع : الكِبر.

المبحث الخامس : الظلم.

المبحث السادس :المداهنة.

المبحث السابع : التعصُّب.

المبحث الثامن : التقليد.

المبحث التاسع : تقديم العقل على النقل.

المبحث الأول

الجهل

تعريف الجهل:

الجهل لغة: خلاف العلم: وهو مصدر قولهم: جهل يجهل، وهو مأخوذ من مادة «ج هـ ل» التي تدلُّ على معنيين، **يقول ابن فارس**: «الجيم والهاء واللام» أصلان: أحدهما خلاف العلم، والآخر: الخفة وخلاف الطمأنينة[1].

الجهل اصطلاحاً:

قال الجرجاني: الجهل: هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه[2].

وقال ابن نجيم: حقيقة الجهل: عدم العلم عمّا شأنه أن يكون معلوماً[3].

أقسام الجهل:

قسّم العلماء الجهل عدة تقسيمات بناء على عدة اعتبارات.

فقسّمه ابن القيم إلى قسمين[4]:

١- **بسيط**: وهو عبارة عن عدم المعرفة مع عدم تلبّس بضده.

٢- **ومركّب**: وهو جهل أرباب الاعتقادات الباطلة.

والقسم الأول هو الذي يطلب صاحبه العلم، أما صاحب الجهل المركب فلا يطلبه.

وبيان ذلك: أن الجهل البسيط: عدم العلم مطلقاً، أي انتفاء إدراك الشيء المعلوم كلية؛ كأن يسأل عن حكم المرأة الحائض هل تصلي وتصوم أم لا مثلا؟

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس: ١/ ٤٨٩.

(٢) التعريفات، للجرجاني، ص: ٨٠.

(٣) الأشباه والنظائر، لابن نجيم، ص: ٢٦١.

(٤) بدائع الفوائد، لابن القيم: ٤/ ٢٠٩.

فيقول: لا أعلم، فهذا جاهل وجهله بسيط.

والجهل المركب: اعتقاد جازم غير مطابق للواقع، أي يتصور الشيء المعلوم ويعتقده على غير هيئته، فكان مركباً من أمرين:

١- عدم العلم بالشيء وانتفاء إدراكه له، وهاهنا يوافق صاحب الجهل البسيط.

٢- أن يعتقد صاحب هذا الجهل ما هو مخالف للواقع غير مطابق لما هو في الخارج اعتقاداً جازماً، فلو سئل عن المرأة الحائض مثلا؟ فيقول تصلّي وتصوم وعليها القضاء، فهو لا يعلم ومع ذلك يعتقد الشيء على خلاف الواقع.

داء الجهل:

الجهل صفة ملازمة لأكثر النفوس، **يقول ابن القيم رحمه الله**: «وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس»[١].

وهو داء عضال، وفيروس قاتل للإنسان في عقله، وقلبه، وجوارحه، ورزقه، وصحته، وعلاقته بربه، وعلاقته بغيره، وعلاقته بالكون كله؛ بل هو أساس الشر وجماعه، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله**: «وجماع الشر الجهل والظلم، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[٢]»[٣].

وهو شجرة سيئة تثمر كل اعتقاد وقول وفعل قبيح.

يقول ابن القيم: «أما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدّة والفحش والبذاء والشح والبخل، ومن ثمرته الغش للخلق

---

(١) هداية الحيارى،: ٢/ ٢٤٤.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٣/ ٣٤٨.

والكبر عليهم، والفخر والخيلاء والعُجب والرياء والسمعة والنفاق والكذب، وإخلاف الوعد والغلظة على الناس والانتقام ومقابلة الحسنة بالسيئة، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وترك القبول من الناصحين وحب غير الله ورجاؤه والتوكل عليه وإيثار رضاه على رضاء الله وتقديم أمره على أمر الله، والتماوت عند حق الله والوثوق بما عند حق نفسه والغضب لها والانتصار لها، فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم بأكثر من حقه، وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضباً لله فلا قوة في أمره ولا بصيرة في دينه، ومن ثمرتها الدعوة إلى سبيل الشيطان وإلى سلوك طريق الغي واتباع الهوى وإيثار الشهوات على الطاعات، وقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ووأد البنات وعقوق الأمهات وقطيعة الأرحام وإساءات الجوار وركوب مراكب الخزي والعار... والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل»[1].

وقد جاءت نصوص الكتاب والسُّنَّة بذمّ الجهل والتحذير منه، فقد بيّن تعالى أن الجهل هو السبب في إعراض المعرضين عن دعوة الأنبياء والمرسلين، وأن الناس لجهلهم كذّبوا بالرسل وبما جاؤوا به من الحق، يقول تعالى مخبراً عن قول نوح لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾[2].

وأخبر النبي ﷺ أن ظهور الجهل وانتشاره يعدّ من علامات قرب الساعة؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أشراط الساعة: أن يُرفع العلم، ويثبت الجهل**»[3].

وعن شقيق قال: كنت مع عبد الله وأبي موسى فقالا: قال النبي ﷺ: «**إن بين يدي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل، ويُرفع العلم**»[4].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص: ١١٦.

(٢) سورة هود، آية: ٢٩.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه البخاري.

وهذا الجهل الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ أنه سيقع في الأمة هو الجهل بعلوم الشريعة.

ولذلك نجد أن الصحابة -رضوان الله عليهم- لما علموا خطورة الجهل بعلوم الشريعة حرصوا على تعليم الناس أمور دينهم، وعلى تلقين أبنائهم أصول الاعتقاد وتوصيتهم بالتمسك بالسُّنَّة، فهذا ابن مسعود -رضي الله عنه- يقول موصياً بتعلم العلم: «عليك بالعلم قبل أن يُقبض، وقبضه أن يذهب أهله أو قال أصحابه[1] إذ الجهل يقود أربابه إلى اعتناق الباطل، ورد الحق ومعاداته».

والناظر لأهل الباطل يجدهم بعيدين عن استيعاب علوم الشريعة، جاهلين بفهم معانيها، ومعرفة قواعدها ومقاصدها، معرضين عن تتبع سُنّة رسول الله ﷺ وسُنّة الصحابة -رضي الله عنهم-، **يقول ابن عبد البر**: «أهل البدع أجمع اضربوا عن السُّنَّة، وتأوّلوا الكتاب على غير ما بينت السُّنَّة، فضلّوا وأضلّوا»[2].

ولجهلهم عند مناظرتهم لأهل الحق العالمين بقول الله وقول رسوله ﷺ نجدهم ينقطعون ويحيدون في المناظرة بالمنقول من الكتاب والسُّنَّة، ويقرّون على أنفسهم بذلك، وأنهم إنما يجيدون الرأي والنظر والقياس، فهذا بشر المريسي لما ناظر الإمام عبدالعزيز بن يحيى الكناني في مسألة خلق القرآن التي يدّعيها بشر المريسي، وكانت المناظرة بحضرة الخليفة العباسي «المأمون» أظهر بشر من الجهل بالقرآن والسُّنَّة الشيء الكثير، ولما حاد عن المناظرة بنص التنزيل قال: عندي أشياء كثيرة إلا أنه (أي الإمام عبدالعزيز الكناني) يقول بنص التنزيل وأنا أقول بالنظر والقياس، فليدع مناظرتي بنص التنزيل وليناظرني بغيره[3].

ولا عجب أن يكون هذا حال أهل الباطل من الجهل بالكتاب والسُّنَّة

---

(١) شرح اعتقاد أهل السُّنَّة، للالكائي: ١/ ٧٨، والإبانة، لابن بطة: ١/ ٣٣٣.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، للقرطبي: ٢/ ١١٩٩.

(٣) الحيدة، لعبد العزيز الكناني، ص: ٨٠.

والبُعد عن تلقّي العلم من السلف الصالح وتصدرهم قبل استيعابهم لما قال الله وقال رسوله ﷺ مع دخول الشبهات إليهم.

وللإنسان مع الجهل أربعة منازل:

الأول: من لا يعتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا طالحاً، فأمره في إرشاده سهل إذا كان له طبع سليم، فإنه كلوح أبيض لم يشغله نقش، وكأرض بيضاء لم يلق فيها بذر، ويقال له باعتبار العلم النظري: غفل، وباعتبار العلم العملي: غمر، ويقال له: سليم الصدر.

والثاني: معتقد لرأي فاسد، لكنه لم ينشأ عليه، ولم يترب به، واستنزاله عنه سهل، وإن كان أصعب من الأول، فإنه كلوح يحتاج فيه إلى محو وكتابة، وكأرض يحتاج فيها إلى تنظيف، ويقال له: غاوٍ وضال.

والثالث: معتقد لرأي فاسد قد ران على قلبه، وتراءت له صحته، فركن إليه لجهله وضعف نحيزته، ممن وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[١] فهذا ذو داء أعيا الأطباء، فكما أن كل داء له دواء، فلا سبيل إلى تنبهه وتهذيبه.

والرابع: معتقد اعتقاداً فاسداً عُرف فساده، أو تمكّن من معرفته، لكنه اكتسب دنية لرأسه، وكرسياً لرئاسته، فهو يحامي عليها، فيجادل بالباطل ليدحض به الحق، ويذم أهل العلم ليجر إلى نفسه الخلق، ويقال له: فاسق ومنافق، وهو من الموصوفين بالاستكبار والتكبّر في نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾[٢] فنبَّه تعالى أنهم ينكرون ما يقولونه لمعرفتهم ببطلانه، لكن يستكبرون عن التزام الحق وذلك حال إبليس فيما دعا إليه من السجود لآدم عليه السلام[٣].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٢.

(٢) سورة المنافقون، آية: ٥.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب، ص: ١٦٥- ١٦٦.

فمن كان جهله للحق بعد علمه به، ومعرفته له، فمن الصعب إقناعه؛ لأن رفضه للحق ناشئ إما عن حسد، أو جحود، أو عناد وكِبر، أو مخادعة لنفسه، ومغالطة لغيره، أو لأي حظ من حظوظ النفس.

وهذا ما أكد عليه ابن القيم بقوله: «أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به النبي ﷺ والظلم باتباع أهوائهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾[1]، وهؤلاء قسمان:

أحدهما: الذين يحسبون أنهم على علم وهدى وهم أهل الجهل والضلال، فهؤلاء أهل الجهل المركّب الذين يجهلون الحق ويعادونه ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالون أهله، وهم ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾[2] فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب الذي يحسبه الظمآن ﴿مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾[3]، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يكون صاحبه أحوج ما هو إليه، ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان كما هو الحال فيمن أم السراب فلم يجده ماء، بل انضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين سبحانه وتعالى فحسب له ما عنده من العلم والعمل فوفّاه إياه بمثاقيل الذر، وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه، فجعله هباء منثوراً؛ إذ لم يكن خالصاً لوجهه ولا على سنة رسوله ﷺ، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علوماً نافعة كذلك هباء منثوراً، فصارت أعماله وعلومه (هكذا).

والقسم الثاني من هذا الصنف: أصحاب الظلمات، وهم المنغمسون في

---

(١) سورة النجم، آية: ٢٣.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١٨.

(٣) سورة النور، آية: ٣٩.

الجهلٍ بحيث قد أحاط بهم من كل وجه، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلاً، فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى، كظلمات عديدة وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظلم واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله -صلوات الله وسلامه عليهم-، والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور، فإن المعرض عما بعث الله تعالى به محمداً ﷺ من الهدى ودين الحق يتقلّب في خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، وقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلم؛ وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمداً ﷺ من النور جدّ في الهرب منه، وكاد نوره يخطف بصره، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى كما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه

ووافقها قطع من الليل مظلم

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونخالة الأذهان، جال وصال، وأبدى وأعاد، وقعقع وفرقع، فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحجز في حجرة الحشرات[1].

ومن كان هذا حاله فإن جهله يعتبر عقبة كؤوداً أمام قبول الحق، يقول الله عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾[2] فتأمل كيف أخبر الله عز وجل أنهم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه من وعيد الله عز وجل لهم بالعذاب -على أحد أوجه التفسير- ولما يأتهم بعد ما يؤول إليه الوعيد، ولو أنهم رأوا

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم، ص: ٥٥ - ٥٨ باختصار.
(٢) سورة يونس، آية: ٣٩.

العذاب ما كذبوا، فكان جهلهم -كما ترى- عقبة كؤوداً أمام بلوغ قلوبهم للحق وقبولهم له، ودفعهم هذا الجهل للتكذيب.

وحتى تتصور عظم مصيبة الجهل وحيلولته دون بلوغ الحق، ومن ثم قبوله والعمل به بعد ذلك، فلتتأمل كيف شرع الله عز وجل بقوله: ﴿بَلْ﴾ التي هي في مثل هذا المقام للإضراب الانتقالي؛ ليبين كنه تكذيبهم وحقيقته المبنية على الجهل، وأنه من أعجب أنواع التكذيب؛ إذ هو لا يستند بحال إلى شيء، بل مما يزيد الأمر خطورة -ولا أقول: غرابة!- أن حالهم في المبادرة بالتكذيب -مع الجهل- قبل التأمل، أعجب بكثير من أصل التكذيب؛ وذلك أنهم بادروا إلى التكذيب دون نظر في أدلة صحته -المشار إليها- ومدى قربه من الحق أو بعده عنه!

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾[١].

والمعنى: أنهم لما لم يهتدوا بالقرآن -على أحد أوجه التفسير في الآية- كما اهتدى به أهل الإيمان؛ والمانع هو جهلهم، قالوا عنه: إنه كذب متقادم، مأثور عن الناس الأقدمين، فينتقصون القرآن بهذا، وهو على نحو قول من قال: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾[٢]، فقدحوا فيه بأنه كذب، مع أنه الحق الذي لا شك فيه، ولا امتراء يعتريه، ولا سبب لذلك إلا جهلهم، وعدم اهتدائهم للحق بسببه.

وهذه المقولة في الحقيقة منهم ناشئة عن جهل مركب، كما أنها شنشنة قديمة، وسجية متأصلة فيهم، ومعروفة في أسلافهم مع كل من جاءهم بالحق، وهي شنشنة من لا يجد حجة، فيعمد إلى التشغيب، واختلاقه بارد الأعذار، فيتعاطون مع الأمور -التي فيها خلاصهم ونجاتهم- بجهل؛ ليصل بهم في نهاية المطاف إلى الجهل، ولا تدري ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[٣].

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ١١.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٢٥.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٥٣.

أسباب الجهل المؤدّي لرد الحق:

الذي أوقع ويوقع أهل الباطل في رد الحق عدة أمور، منها:

أولاً: عدم فهم الدليل ووضعه في غير موضعه، وقد وصف رسول الله ﷺ الخوارج بأنهم «**يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم**»[(١)].

وكانت البدع الأولى مثل: «بدعة الخوارج» إنما هي من سوء فهمهم للقرآن... «لكن فهموا منه ما لم يدل عليه»[(٢)].

ثانياً: المنازعة في المسألة قبل استكمال العلم وإحكامه وجمع حواشيه وأطرافه، فيظن المسلم أنه بقراءته للقرآن قد استكمل العلم فيذهب للمنازعة وإنكار ما يجهله، فلقد أنكرت أم يعقوب على عبدالله بن مسعود لعنه للواشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيّرات خلق الله، قالت له: ما هذا؟ قال: «ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ في كتاب الله» قالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته فقال: والله لئن قرأتيه لقد وجدتيه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾[(٣)] [(٤)].

لذلك أرشد النبي ﷺ إلى ما يفعله المسلم عند الجهل ببعض العلم فقال: «**ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه**»[(٥)] ولم يقل اعملوا برأيكم، أو ردوا ما جهلتم.

ثالثاً: إنكار ما يجهله وما غاب عن علمه، خاصة إذا كان مع المخالف، فيقع منه التكذيب ببعض الحق، ومن الجهل أن يرد بعض الحق الذي يكون مع مخالفه إذا كان مختلطاً بالباطل فيؤدي هذا الرد إلى الاختلاف والنزاع[(٦)].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٣/ ٣٠.

(٣) سورة الحشر، آية: ٧.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) رواه أحمد: ١١/ ٣٠٥، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية: ١/ ١٥١.

رابعاً: الانشغال والاهتمام بالعلوم الدنيوية التي يتحصّل المسلم بها على وظيفة ودخل ويكون انشغاله على حساب تعلمه أمور دينه الأساسية، فكثيراً ما نجد من المسلمين من بلغ مراتب عالية في العلوم الدنيوية ولكنه قليل العلم في أمور دينه حتى لا يكاد يفرق بين أركان الصلاة وواجباتها فضلاً عن مستحباتها، فيكون بذلك لقمة سائغة وبيئة خصبة لتقبل البدع ونشرها، إذ لا حصانة لديه من العلم الشرعي الصحيح.

خامساً: تجزئة الشريعة والأخذ ببعض النصوص بدون بعض أو الزعم بالاستغناء بالقرآن الكريم عن السُّنَّة النبوية، **يقول الشاطبي**: «ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد والجهل بمقاصد الشرع وعدم ضم أطرافه بعضها لبضع فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها وعامها المرتب على خاصها...» إلى أن قال: «فشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها بعضاً كأعضاء الإنسان... وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل ما؛ أي دليل كان عفواً وأخذاً، وإن كان ثم ما يعارضه من كلي أو جزئي فكأن العضو الواحد لا يعطي في مفهوم أحكام الشريعة حكماً حقيقياً فمتبعه متبع متشابه ولا يتبعه إلا من في قلبه زيغ كما شهد الله به»[1].

وغير ذلك من الأمور التي أوقعت أهل الباطل في باطلهم، وردّهم للحق ورفضهم له.

وأما من كان جهله ناشئاً عن عمى وعدم معرفة مسبقة، فإنه إذا ما عرف الحق أو بُيّن له قبله، وانقاد له، وقديماً قيل: «من جهل شيئاً عاداه».

وقد قيل للحسين بن الفضل رحمه الله: «هل تجد في القرآن: من جهل شيئا عاداه؟!» قال: «نعم، في موضعين: قوله عز وجل: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ

---

(١) الاعتصام، للشاطبي، ص: ٣١١.

عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾﴾[2]»[3].

وقبول الحق فرض لازم لا محيص للمسلم في رده، **يقول شيخ الإسلام**: «أصل الفطرة التي فطر الناس عليها إذا سلمت من الفساد، إذا رأت الحق اتبعته وأحبته؛ إذ الحق نوعان:

حق موجود، فالواجب معرفته والصدق في الإخبار عنه، وضد ذلك الجهل والكذب.

وحق مقصود، وهو النافع للإنسان، فالواجب إرادته والعمل به، وضد ذلك إرادة الباطل واتباعه»[4].

والراد للحق بغيض عند الله، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت، قال ﷺ: «**أبغض الرجال إلى الله تعالى الألد الخصم**»[5].

والألد الخصام فسره أبو عبيد بقوله: «الألد: الذي لا يقبل الحق ويدّعي الباطل، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾[6]»[7].

وفي السؤالات المروية عن نافع بن الأزرق، لابن عباس[8]: أنه سأله عن قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ فقال ابن عباس: «الجدل المخاصم

---

(١) سورة يونس، آية: ٣٩.

(٢) سورة الأحقاف، آية: ١١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٨/ ٣٤٥.

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٥/ ٢٤١.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٠٤.

(٧) معالم التنزيل، للبغوي: ٥/ ٢٥٨.

(٨) مسائل نافع بن الأزرق، هي أسئلة قدمها إلى ابن عباس، فأجاب عنها مستشهداً بشعر العرب، وهي تقرب من (١٨٧) مسألة تقريباً.

في الباطل»، قال نافع: «وهل تعرف العرب ذلك؟» قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نعم؛ أما سمعت قول مهلهل:

إن تحـت الأحـجـار حزما وجـوداً

وخـصـيـمـا ألـــد ذا مـــغــلاق»[1]

وإنما وصم بهذا؛ لأنه -والله أعلم- كلما احتج عليه بحجة أو بيّن له الحق فيها وظهرت المحجة؛ أخذ يعترض عليها بشبه واهية، وسفسطةٍ ركيكة، لا تسمن ولا تغني من جوع؛ فهو أعوج المقال، سيّئ الفعال، يكذبُ ويزوّر عن الحق ولا يستقيم معه بحال، على أنه قد يكون لسان بعضهم أحلى من العسل، لكن قلوبهم أمر من الصبر، قد لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين، ولكنهم يجترون الدنيا بالدين.

وألـــد ذي حــنــقٍ عــلـي كـأنما

تـغـلـي حــرارة صــدره فــي مرجل

والمسلم المريد للحق الحريص عليه يجتهد ويجاهد نفسه في طلبه، قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾[2] فإذا تأملت «اللام» في قوله عز وجل: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ لعلمت أن هذا ليس وعداً فحسب، بل هو قسم منه عز وجل[3]، وما ذلك إلا لأنهم اجتهدوا في طلب الحق، فجزاهم الله عز وجل على حُسن حرصهم وبحثهم بتبصيرهم بالحق وإيصالهم إليه وتوفيقهم له، والجزاء من جنس العمل، وهذا أحد أوجه التفسير في الآية، والذي ذكره جملة من المحققين من أهل التفسير.

ولن يكون ذلك إلا بسلوك طريق العلم، ثم العمل بمقتضى ذلك العلم.

---

(١) الدر المنثور، للسيوطي: ١/ ٥٧٣.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

(٣) أضواء البيان، للشنقيطي: ٦/ ١٦٣.

المبحث الثاني

الهوى

تعريف الهوى:

الهوى لغة: الخلو والسقوط: **قال ابن فارس**: «الهاء والواو والياء»: أصل صحيح يدل على: خلو وسقوط[1].

والهوى مقصور مصدر هويته، إذا أحببته وعلقت به، ثم أطلق على ميل النفس وانحرافها نحو الشيء، ثم استعمل في ميل مذموم فيقال: اتبع هواه، وهو من أهل الأهواء[2].

الهوى اصطلاحاً:

قال الراغب: «ميل النفس إلى الشهوة»[3]. **وقال ابن الجوزي**: «ميل الطبع إلى ما يلائمه»[4]. **وقال الجرجاني**: «ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع»[5].

أحوال الناس مع الهوى:

للناس مع الهوى ثلاث حالات[6]:

الأولى: أن يغلبه الهوى فيملكه؛ كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾[7].

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس: ٦/ ١٥.

(٢) المصباح المنير، للفيومي: ٢/ ٦٤٣.

(٣) المفردات، للراغب، ص: ٨٤٩.

(٤) ذم الهوى، لابن الجوزي، ص: ١٢.

(٥) التعريفات، للجرجاني، ص: ٢٥٧.

(٦) الذريعة، للراغب، ص: ٩١.

(٧) سورة الفرقان، آية: ٤٣.

الثانية: أن يغالبه فيقهره مرة ويُقهر مرة.

الثالثة: أن يغلب هواه ككثير من الأنبياء وبعض صفوة الأولياء.

أقسام الهوى من حيث الأمور المشتهاة للنفس:

قسّم العلماء الهوى من حيث الأمور المشتهاة للنفس إلى قسمين:

الأول: الهوى في الشبهات: وهذا أشد القسمين خطراً؛ إذ ربما ترتّب عليه الخروج من الإسلام، وصاحبه بعيد عن التوبة؛ لأنه يعتقد أنه على صواب وليس كذلك.

وهذا القسم هو الذي يرد به الحق، وهو صلب حديثنا في هذه المبحث.

الثاني: الهوى في الشهوات: والهوى في الشهوات ينقسم إلى قسمين:

١- الشهوات المباحة: بحيث يتبع شهواته المباحة، والمحذور في ذلك هو اتباع الشهوة المباحة التي تقود إلى المحرّم، أو التي تقود إلى التقصير في الطاعة والتكاسل عنها، أو الإكثار منها بحيث تستغرق وقتاً كان الأولى صرفه فيما ينفع ويقرب إلى الله.

٢- الشهوات المحرّمة: وهذا من اسمه يُعرف حكمه، وهذا صاحبه يُخشى عليه سوء الخاتمة.

أقسام الهوى من حيث المدح والذم:

ينقسم الهوى من حيث المدح والذم إلى قسمين:

القسم الأول: الهوى المحمود: وهو الهوى المنسجم مع غزيرة الإنسان وجبلته المنضبط بضوابط الشرع الحنيف، وأيضاً الهوى الذي جاء مقيداً في السُّنَّة.

وعليه تحمل النصوص الواردة في مدح الهوى؛ كحديث عائشة قالت: «كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وأقول: أتهب المرأة نفسها؟» فلما أنزل الله تعالى:

﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾[1] قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»[2].

وقصة استشارة النبي ﷺ للصحابة في أسارى بدر، قال عمر: «**فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلت**»[3].

وحديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[4] فلا يكون المسلم كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها، فيحب ما أمر به، ويكره ما نهى عنه[5].

وقد بيّنت الشريعة: أن اتباع الهوى على ضربين:

أحدهما: أن يكون تابعاً للأمر والنهي، فليس بمذموم ولا صاحبه بضال، كيف وقد قدم الهدى فاستنار به في طريق هواه؟ وهو شأن المؤمن التقي.

والآخر: أن يكون هواه هو المقدم بالقصد الأول، كان الأمر والنهي تابعين بالسُّنَّة إليه أو غير تابعين وهو المذموم[6].

و«لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمّه، وكذلك في السُّنَّة لم يجئ إلا مذموماً إلا ما جاء منه مقيداً»[7].

وعليه فإن ضابط الهوى المذموم والمحمود: الإطلاق والتقيد؛ فمتى جاءت نصوص الكتاب والسُّنَّة بالنهي عن اتباع الهوى مطلقة كان الهوى مذموماً،

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٥١.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه ابن أبي عاصم في السُّنَّة: ١/ ١٢، وصححه النووي في الأربعين النووية.

(٥) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ٢/ ٣٩٥.

(٦) الاعتصام، للشاطبي، ص: ٦٧ – ٦٨.

(٧) روضة المحبين، لابن القيم، ص: ٤٦٩.

وهذا هو الأعم الغالب، ومتى جاءت النصوص مقيدة كان الهوى محموداً، وهذا قليل نادر.

الهوى غريزة:

الهوى غريزة وجبلة فُطرت عليه النفس البشرية، بل حتى الحيوان جُبل على ذلك.

وبما أن الهوى غريزة وفطرة لم يعاقب عليها الإنسان ابتداء، **قال ابن تيمية**: «الهوى والشهوة لا يعاقب عليه، بل على اتباعه والعمل به، فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيه عبادة لله وعملاً صالحاً»[1].

حكم اتباع الهوى:

اتباع الهوى محرّم، كما نصّ على ذلك عامة أهل العلم[2]، وممن نصّ على ذلك الإمام الشاطبي، مستدلاً على ذلك بأدلة كثيرة، منها:

أولاً: أنه قد ثبت بالاستقراء أن الشريعة مضادة للهوى من كل وجه، وأن اتباع الهوى ضد اتباع الشريعة، وأن وضع الشريعة على أن تكون أهواء النفس تابعة لمقصود الشارع فيها[3]، وأن القصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه؛ حتى يكون عبداً لله اختياراً كما أنه عبد لله اضطراراً[4].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[5] فمن نازعه هواه فإن الواجب

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٠/ ٦٣٥.

(٢) روضة الناظر، لابن قدامة: ١/ ٣٣٨.

(٣) الموافقات، للشاطبي: ١/ ٥١٠ - ٥١٦.

(٤) الموافقات، للشاطبي: ٢/ ٦٣، ٢٨٩، ٥/ ٧٧.

(٥) سورة النساء، آية: ٥٩.

عليه الرجوع إلى الأدلة الشرعية والبعد عن اتباع اختياره وشهوته، وهذا ضابط قرآني لا مثيل له، يهدم قضية اتباع الهوى جملة وتفصيلاً[1].

ثالثاً: أنه قد علم بالتجارب والعادات أن المصالح -دينية ودنيوية- لا تتحصّل مع قصد الهوى والشهوة؛ لما يلزم في ذلك من الفساد والإفساد؛ ولذا اتفق العقلاء على ذم اتباع الهوى والشهوات والاسترسال في تحقيقها، وقد جاء الشرع بتأييد ذلك وتأكيده، وبهذا يكون قد توارد العقل والنقل على ذم الهوى في الجملة[2].

رابعاً: أن المصالح الشرعية إنما تثبت على نظر شرعي وقصد رباني، ولم تراع فيها أهواء الناس وشهواتهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾[3][4]؛ إذ لو كانت المراعاة لأغراض الناس، لاستحال وضع الشريعة على نسق واحد؛ لكثرة الاختلاف[5].

خامساً: أن اتباع الهوى فيه تعطيل للأوامر الشرعية، وارتكاب للمحظورات الربانية؛ لأنه مضاد لها؛ فاتباع الهوى مسقط للتكليف جملة وتفصيلاً[6].

سادساً: أن اتباع الهوى وإن جاء في الأفعال الشرعية على وجه التبع، إلا أنه قد يهلك صاحبه، ويكون وسيلة لأن يكون اتباعه قصداً وغاية؛ فقد يتلذذ به صاحبه فيسري في جميع أعماله فيبطلها، لا سيما وأن النفس البشرية ميّالة للهوى، مجبولة على قبوله، وقد يجد العاقل لذة العبادة

(١) الموافقات، للشاطبي: ٥/ ٨١ - ٨٢، وإعلام الموقعين، لابن القيم: ١/ ٣٩ - ٤٠.

(٢) الموافقات، للشاطبي: ٢/ ٢٩٢.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ٧١.

(٤) الموافقات، للشاطبي: ٢/ ٦٣ - ٦٤، ٢٩٣.

(٥) الموافقات، للشاطبي: ٢/ ٦٥ - ٦٦).

(٦) الموافقات، للشاطبي: ٢/ ٢٩٨، ٥/ ٨٣.

وأنسها، وتضع له العبادة بين الناس موضعاً، فيقصد بعبادته ذلك، فيقع في مهلكة الهوى(١).

سابعاً: أنه لو كانت الشريعة جاءت بمراعاة الهوى من كل وجه للزم منه محال؛ إذ أغراض الناس في الأمر الواحد متفاوتة مختلفة، ولو كانت الشريعة متعلقة بالأغراض لما استقرت على وضع واحد، ولجاءت مضطربة مختلفة، وهذا باطل، فما يلزم منه باطل أيضاً(٢).

ثامناً: أن اتباع الهوى في الأحكام الشرعية -ولو وقع تبعاً- فإنه وسيلة لأن يجعل العامل ما يقوم به من أعمال شرعية حيلة لتحصيل أغراضه وأهوائه، فيكون كالمرائي يتخذ الأعمال الصالحة سلماً لما في أيدي الناس(٣).

ذم اتباع الهوى:

اتباع الهوى دلّ على ذمّه العقل والنقل(٤).

وهو عن الخير صاد، وللعقل مضاد؛ لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً، ومدخل الشر مسلوكاً(٥).

والبلاء كله في الهوى(٦).

وهو مركب ذميم يسير بصاحبه في ظلمات الفتن، ومرتع وخيم يقعده في مواطن المحن(٧).

وهو يعمي ويصم صاحبه؛ فلا يستحضر ما لله ورسوله في الأمر، ولا يطلبه

---

(١) الموافقات، للشاطبي: ٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٢) الموافقات، للشاطبي: ٢/ ٦٥ - ٦٦.

(٣) الموافقات، للشاطبي: ٢/ ٢٩٩.

(٤) الموافقات، للشاطبي: ٢/ ٢٩٢، ٥/ ٩٦.

(٥) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص: ٢٩.

(٦) ذم الهوى، لابن الجوزي، ص: ٢٤ قاله بشر الحافي.

(٧) المدهش، لابن الجوزي، ص: ٣٧٥.

أصلاً، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه هواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، فليس قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصده الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء ليعظم هو ويثنى عليه، أو لغرض من الدنيا، فلم يكن لله غضبه ولم يكن مجاهداً في سبيل الله، بل إن أصحاب الهوى يغضبون على من خالفهم وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم وإن كان جاهلاً سيئ القصد ليس له علم ولا حُسن قصد، فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذمّوا من لم يذمّه الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم، لا على دين الله ورسوله»(١).

وهو أصل الزيغ عن الصراط المستقيم(٢).

وهو وقوع في المتشابه الذي نهى الله عن اتباعه، وبيّن أنه زيغ عن الحق وابتغاء للفتنة(٣).

وهو وقوع في البدع، ذلك أنها «إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع»(٤).

وأهل البدع سماهم السلف: أهل الأهواء؛ لأنهم على ضلالٍ، والضلال مستلزم لاتباع الهوى كما أن الهدى لازم لاتباع سبيله(٥).

وأهل الأهواء وقعوا في البدع «لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها، بل قدّموا

---

(١) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية: ٥/ ٢٥٦.

(٢) الاعتصام، للشاطبي: ٢/ ٤٠١، ٤٧٠، ٤٩٩ وما بعدها، والموافقات، للشاطبي: ٣/ ٢١١، ٥/ ١٦٥، ٢٢١.

(٣) الموافقات، للشاطبي: ٣/ ٢١٢، ٣١٧، ٥/ ١٦٥، ٢٢١)، والإبانة، لابن بطة: ٢/ ٥٠١.

(٤) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ٢/ ٣٩٧.

(٥) جامع المسائل لابن تيمية، تحقيق/ عزير شمس: ٦/ ١٤٦.

أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك»[1].

و«جميع المعاصي إنما تنشأ عن تقديم هوى النفوس على محبة الله ورسوله»[2].

الطوائف المعارضة للوحي بالهوى:

قسّم ابن القيم[3] الطوائف المعارضة للوحي بالهوى إلى خمس طوائف:

الطائفة الأولى: عارضته بعقولهم في الخبريات، وقدمت عليه العقل، فقالوا لأصحاب الوحي: لنا العقل ولكم النقل.

الطائفة الثانية: عارضته بآرائهم وقياساتهم، فقالوا لأهل الحديث: لكم الحديث، ولنا الرأي والقياس.

الطائفة الثالثة: عارضته بحقائقهم وأذواقهم، وقالوا: لكم الشريعة ولنا الحقيقة.

الطائفة الرابعة: عارضته بسياساتهم وتدبيرهم، فقالوا: أنتم أصحاب الشريعة ونحن أصحاب السياسة.

الطائفة الخامسة: عارضته بالتأويل الباطن، فقالوا: أنتم أصحاب الظاهر ونحن أصحاب الباطن.

الرد على الطوائف المعارضة للوحي بالهوى:

إن كل طائفة من هذه الطوائف لا ضابط لما تأتي به من ذلك، بل ما تأتي به تبع لأهوائها؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ

(١) الاعتصام، للشاطبي، ص: ٦٨٣.

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ٢/ ٣٣٥.

(٣) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ١٠٥١.

أَهْوَآءَهُمْ﴾[1]، وقـال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[2] فما هو إلا الهوى أو الوحي؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[3] فجعل النطق نوعين؛ نطقاً عن الوحي ونطقاً عن الهوى.

ثم إذا ردّ على كل من هؤلاء باطله رجع إلى طاغوته، وقال في العقل ما لا يقتضيه النقل، وقال الآخر في الرأي والقياس ما لا يجيزه الحديث، وقال الآخر في الذوق والحقيقة ما لا تسوغه الشريعة، وقال الآخر في السياسة ما تمنع منه الشريعة، وقال الآخر في الباطن ما يكذبه الظاهر، فباطل هؤلاء كلهم لا ضابط له بخلاف الوحي، فإنه أمر مضبوط مطابق لما عليه الأمر في نفسه تلقاه الصادق المصدوق من لدن حكيم عليم[4].

أثر اتباع الهوى في رد الحق:

الهوى عمل قلبي لا يمكن الاطلاع على المبتلى به إلا بدليل خارجي، **قال الشاطبي**: «اتباع الهوى أمر باطني فلا يعرفه غير صاحبه إذا لم يغالط نفسه إلا أن يكون عليها دليل خارجي»[5].

والأدلة الخارجية على معرفة المبتلى باتباع الهوى كثيرة جداً، ومنها: رد الحق، وعدم قبوله؛ **قال علي بن أبي طالب**: «إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: طول الأمل، واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق»[6].

---

(١) سورة القصص، آية: ٥٠.

(٢) سورة المائدة، آية: ٤٩.

(٣) سورة النجم، آية: ٣، ٤.

(٤) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ١٠٥١ - ١٠٥٢.

(٥) الاعتصام، للشاطبي، ص: ٧٣٧.

(٦) فضائل الصحابة، لأحمد بن حنبل: ١/ ٥٣٠، وحلية الأولياء، لأبي نعيم: ١/ ٧٦.

فاتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه البتة، وإذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكر أو بالعظة؟[١].

وباتباع الهوى كُذِّبت الرسل، وعُصي الرب، ودخلت النار، وحلت العقوبات[٢].

وباتباع الهوى رد الكفار رسالة السماء ورفضوا الاستجابة للرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾[٣]، **قال ابن سعدي**: «اعلم أن تركهم اتباعك ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم»[٤].

وقال عبد الرحمن المعلمي: «لم يمنعهم من الإسلام إلا اتباع الهوى»[٥].

وباتباع الهوى رد أهل الأهواء الحق الذي مع مخالفيهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ

(١) مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٤٤٨ – ٤٤٧.

(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم: ١/ ١٠٦.

(٣) سورة القصص، آية: ٥٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، لابن سعدي، ص: ٦١٨.

(٥) القائد إلى تصحيح العقائد، لعبد الرحمن المعلمي، ص: ٣٥.

﴿٢٠﴾﴾[1]، فهذه الآيات وما في معناها: بيّنت أن أهل الاختلاف المذموم لم يختلفوا لأجل اشتباه الحق بالباطل، وإنما اختلفوا بعد معرفة الحق وظهوره، وأن ما حملهم على ذلك البغي، فإنهم كذّبوا بما مع الآخرين من الحق مع علمهم أنه حق، وصدّقوا بما مع أنفسهم من الباطل مع علمهم أنه باطل[2].

وباتباع الهوى رد أهل الانحراف نصوص الأسماء والصفات، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[3] والزيغ الميل عن الحق اتباعاً للهوى[4].

وباتباع الهوى أغمض أهل الأهواء أعينهم عن النظر إلى الحق وإن كان أبلجَ، وعن سماع الحق وإن كان مدوياً، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾[5] ذلك أن الهوى قد سيطر على آلة البصر والسمع، وأصبح الهوى هو المتصرّف والمسيطر، فبهواه يأتمر، وبه ينتهي.

وباتباع الهوى ضل الإنسان عن سبيل الحق، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾[6].

والهوى مضاد للحق، بل قسيم له؛ فالوحي والهوى ضدان لا يجتمعان، بل هو عين مخالفة الشرع[7].

---

(١) سورة الجاثية، آية: ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.

(٢) منهاج السُّنة النبوية، لابن تيمية: ٥/ ٢٦٤ بحذف وزيادة.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٧.

(٤) الاعتصام، للشاطبي، ص: ٧٣٧.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١١٠.

(٦) سورة ص، آية: ٢٦.

(٧) الموافقات، للشاطبي: ١/ ٥١٠، ٢/ ٦٤ - ٦٥، ٢٩٢، ٥/ ٩٦ - ٩٩.

الوسائل المعينة على التخلص من اتباع الهوى:

ذكر ابن القيم جملة من الوسائل المعينة على التخلص من اتباع الهوى بعد عون الله وتوفيقه، ومنها:

الأولى: عزيمة حر يغار لنفسه وعليها.

الثانية: جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة.

الثالثة: قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة.

الرابعة: ملاحظته حُسن موقع العاقبة، والشفاء بتلك الجرعة.

الخامسة: ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه.

السادسة: إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى.

السابعة: إيثاره لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية.

الثامنة: فرحه بغلبة عدوه وقهره له ورده خاسئاً بغيظه وغمّه وهمّه، حيث لم ينل منه أمنيته.

التاسعة: مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة، وعز الظاهر وعز الباطن، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة وتذلّه في الظاهر وفي الباطن[1].

العاشرة: البُعد عن مجالسة أهل الأهواء، والحرص على مخالطة العلماء:

وخالط إذا خالطت كل موفق
من العلماء أهل التقى والتسدد
يفيدك من علم وينهاك عن هوى
فصاحبه تهد من هداه وترشد[2]

---

(١) روضة المحبين، لابن القيم، ص: ٤٧١ - ٤٨٥.

(٢) الآداب الشرعية، للماوردي: ٣/ ٥٨٩.

الحادية عشرة: سؤال الله الهداية، والاستعاذة به من مضلات الأهواء: فعن زياد بن علاقة عن عمه قال: كان النبي ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق، والأعمال والأهواء**»[1].

ودعا عمر بن عبد العزيز لخالد بن صفوان بقوله: «أعاذنا الله وإياك من اتباع الهوى»[2].

ودعا إبراهيم التيمي بقوله: «اللهم اعصمني بكتابك وسنة نبيك من اختلاف في الحق، ومن اتباع الهوى بغير هدى منك، ومن سبل الضلالة، ومن شبهات الأمور، ومن الزيغ، واللبس، والخصومات»[3].

الثانية عشرة: ردع النفس وإجبارها على مخالفة الهوى: قال أبو حازم: «قاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك»[4].

وقال رجل للحسن البصري: «يا أبا سعيد أي الجهاد أفضل؟ قال «جهادك هواك»[5].

وقال ابن الجوزي: «وينبغي للعاقل أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليستمر بذلك على ترك ما تؤذي غايته»[6].

وما يردع النفس اللجوج عن الهوى

من الناس إلا حازم الرأي كامله[7]

---

(١) رواه الترمذي: ٥/ ٥٧٥، وقال: «حديث حسن غريب» وصححه الألباني في المشكاة: ٢٤٧١.

(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم: ٨/ ١٨.

(٣) حلية الأولياء، لأبي نعيم: ٤/ ٢١١.

(٤) حلية الأولياء، لأبي نعيم: ٣/ ٢٣١.

(٥) روضة المحبين، لابن القيم، ص: ٤٧٨.

(٦) ذم الهوى، لابن الجوزي، ص: ١٣.

(٧) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص: ٣٠.

الثالثة عشرة: التأمل في العواقب الوخيمة والآثار السيئة المترتبة على اتباع الهوى: فما خالط الهوى شيئاً إلا أفسده[1].

الرابعة عشرة: استشعار فضائل وثمرات مخالفة الهوى، ومنها: «أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة في قلبه ولسانه وبدنه»[2]، وأن المخالف لهواه في ظل عرش الرحمن يوم القيامة[3]، وأن المخالف لهواه مأواه جنة المأوى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[4].

---

(١) روضة المحبين، لابن القيم، ص: ٤٧٤.

(٢) روضة المحبين، لابن القيم، ص: ٤٧٧.

(٣) روضة المحبين، لابن القيم، ص: ٤٨٦.

(٤) سورة النازعات، آية: ٤٠، ٤١.

المبحث الثالث

الحسد

تعريف الحسد:

الحسد لغة: الحسد: تمني الشر للغير: ومصدره «حسده، يحسده، ويحسده، حسداً، وحسوداً، وحسادة، وحسده؛ تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته، أو يسلبهما، وحسده الشيء وعليه»(١).

الحسد اصطلاحاً: قال الجرجاني: «الحسد: تمني زوال نعمة المحسود إلى الحاسد»(٢).

وقال الراغب: «الحسد تمني زوال نعمة من مستحق لها، وربما كان مع ذلك سعي في إزالتها»(٣).

وقال المناوي: «الحسد: تمني زوال نعمة عن مستحق لها، وقيل: هو ظلم ذي النعمة بتمني زوالها عنه وصيرورتها إلى الحاسد»(٤).

وقال الماوردي: «حقيقة الحسد: شدة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل»(٥).

وقال الطاهر بن عاشور: «الحسد: إحساس نفساني مركب من استحسان نعمة في الغير، مع تمني زوالها عنه؛ لأجل غيرة على اختصاص الغير بتلك الحالة، أو على مشاركته الحاسد»(٦).

---

(١) لسان العرب، لابن منظور: ٣/ ١٤٨، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي، ص: ٢٧٧.

(٢) التعريفات، للجرجاني، ص: ٨٧.

(٣) التعريفات، للجرجاني، ص: ٨٧.

(٤) التوقيف، للمناوي: ١٣٩ - ١٤٠.

(٥) أدب الدنيا والدين، للماوردي: ٢٦٠.

(٦) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣٠/ ٦٢٩.

وقال ابن القيم: «أصل الحسد: هو بغض نعمة الله على المحسود وتمني زوالها»[1].

وقال النووي: «وهو تمني زوال النعمة عن صاحبها، سواء كانت نعمة دينٍ أو دنيا»[2].

الفرق بين الحسد والغبطة:

الغبطة: تمني الإنسان أن يكون له من الذي لغيره من غير إرادة إذهاب ما لغيره. أما الحسد فهو إرادة زوال نعمة الغير، ثم إن الغبطة صفة المؤمن، والحسد صفة المنافق[3].

أقسام الحسد:

قسّم العلماء الحسد إلى عدد من الأنواع، ومنهم ابن القيم فقد قسّمه إلى ثلاثة أنواع:

١- حسد يخفيه ولا يرتب عليه أذى بوجه ما؛ لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك، ولا يعاجل أخاه إلا بما يحب الله.

٢- تمني استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله؛ من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه.

٣- حسد الغبطة؛ وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود، من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة[4].

---

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/ ٢٣٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي: ١٨/ ٩٦.

(٣) الكليات، للكفوي، ص: ٦٧٢، والمفردات، للراغب: ١١٧.

(٤) بدائع الفوائد، لابن القيم: ٢/ ٢٣٧.

وقسّمه الغزالي إلى أربعة أنواع:

١- أن يحب زوال النعمة عنه، وإن كان ذلك لا ينتقل إليه، وهذا غاية الخبث.

٢- أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته في تلك النعمة، مثل رغبته في دار حسنة، أو امرأة جميلة، أو ولاية نافذة، أو سعة نالها غيره، وهو يحب أن تكون له، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه.

٣- أن لا يشتهي عينها لنفسه، بل يشتهي مثلها، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما.

٤- أن يشتهي لنفسه مثلها، فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه، وهذا هو المعفو عنه إن كان في الدنيا، والمندوب إليه إن كان في الدين[1].

بواعث الحسد وأسبابه:

للحسد أسباب كثيرة تجعل النفس المريضة تقع في حبائل تلك الخصلة الذميمة، وقد أجملها الجرجاني بقوله: «التفاضل -أطال الله بقاءك- داعية التنافس؛ والتنافس سبب التحاسد؛ وأهل النقص رجلان: رجل أتاه التقصير من قبله، وقعد به عن الكمال اختياره، فهو يساهم الفضلاء بطبعه، ويحنو على الفضل بقدر سهمه. وآخر رأى النقص ممتزجاً بخلقته، ومؤثلاً في تركيب فطرته، فاستشعر اليأس من زواله، وقصرت به الهمّة عن انتقاله؛ فلجأ إلى حسد الأفاضل، واستغاث بانتقاص الأماثل؛ يرى أن أبلغ الأمور في جبر نقيصته، وستر ما كشفه العجز عن عورته، اجتذابهم إلى مشاركته، ووسمهم بمثل سمته[2].

وذكر الماوردي بواعث الحسد في ثلاثة أمور:

أحدهما: بغض المحسود فيأسى عليه بفضيلة تظهر، أو منقبة تشكر، فيثير

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٢/ ١٩٢.

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص: ١.

حسداً قد خامر بغضاً. وهذا النوع لا يكون عاماً وإن كان أضرها؛ لأنه ليس يبغض كل الناس.

والثاني: أن يظهر من المحسود فضل يعجز عنه فيكره تقدّمه فيه واختصاصه به، فيثير ذلك حسداً لولاه لكف عنه. وهذا أوسطها؛ لأنه لا يحسد الأكفاء من دنا، وإنما يختص بحسد من علا. وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسداً.

والثالث: أن يكون في الحاسد شح بالفضائل، وبخل بالنعم وليست إليه فيمنع منها، ولا بيده فيدفع عنها؛ لأنها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله عز وجل في قضائه، ويحسد على ما منح من عطائه، وإن كانت نعم الله عز وجل عنده أكثر، ومنحه عليه أظهر. وهذا النوع من الحسد أعمها وأخبثها إذ ليس لصاحبه راحة، ولا لرضاه غاية، فإن اقترن بشر وقدرة كان بوراً وانتقاماً، وإن صادف عجزاً ومهانة كان كمداً وسقاماً[1].

وفصلها في أسباب الغزالي فذكرها في سبعة أمور:

١- «**العداوة والبغضاء**: وهذا أشد أسباب الحسد، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب، وخالفه في غرض بوجه من الوجوه، أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد. والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفّى بنفسه أحب أن يتشفّى منه الزمان، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى، فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها، وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك؛ لأنه ضد مراده، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله؛ حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه، بل أنعم عليه.

٢- **التعزز**: وهو أن يثقل عليه أن يترفّع عليه غيره، فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية، أو علماً، أو مالاً خاف أن يتكبّر عليه، وهو لا يطيق تكبّره، ولا تسمح

---

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص: ٢٧٠.

نفسه باحتمال صلفه، وتفاخره عليه، وليس من غرضه أن يتكبّر، بل غرضه أن يدفع كبره، فإنه قد رضي بمساواته مثلاً، ولكن لا يرضى بالترفّع عليه.

٣- **الكِبر**: وهو أن يكون في طبعه أن يتكبّر عليه، ويستصغره، ويستخدمه، ويتوقّع منه الانقياد له، والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمة خاف ألا يحتمل تكبّره ويترفّع عن متابعته، أو ربما يتشوف[1] إلى مساواته، أو إلى أن يرتفع عليه، فيعود متكبراً بعد أن كان متكبراً عليه.

٤- **التعجب**: فيجزع الحاسد من أن يتفضّل عليه من هو مثله في الخِلقة، لا عن قصد تكبّر، وطلب رياسة، وتقدم عداوة، أو سبب آخر من سائر الأسباب.

٥- **الخوف من فوت المقاصد**: وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كان واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده، ومن هذا الجنس تحاسد الضرات[2] في التزاحم على مقاصد الزوجية، وتحاسد الإخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين؛ للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال.

٦- **حب الرياسة وطلب الجاه**: وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحدُ الدهر، وفريد العصر في فنه، وأنه لا نظير له، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك، وأحب موته، أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه المنزلة؛ من شجاعة، أو علم، أو عبادة، أو صناعة، أو جمال، أو ثروة، أو غير ذلك مما يتفرد هو به، ويفرح بسبب تفرده.

٧- **خُبث النفس وشحّها بالخير لعباد الله تعالى**: فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه؛ يشق ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور

---

(١) يتطلع.

(٢) الزوجات.

الناس، وإدبارهم، وفوات مقاصدهم، وتنغص عيشهم فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته»[1].

مساوئ الحسد:

الحسد بوابة الآثام، وبضاعة اللئام، وهو في الغالب داء ينشأ من ضعف الإيمان بالقضاء والقدر، وقلة الفهم لمعاني الأسماء والصفات.

فالحاسد لو كان عنده إيمان قوي بقضاء الله وقدره ما حسد الناس على ما قضاه الله وقدّره، ولو كان عنده علم وفهم لاسمي الله: العليم والحكيم ما حسد؛ لأن الله حكيم في قضائه وقدره وعليم بخلقه، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «القلب لا يدخله حقائق الإيمان إذا كان فيه ما ينجسه من الكبر والحسد»[2].

بل إن الحاسد يبارز ربه في خمسة أمور:

أولاً: أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره.

ثانياً: أنه ساخط لقسمة ربه، كأنه يقول: ربي لما قسمت هذه القسمة؟

ثالثاً: أنه ضاد الله بفعله، أي أن فضل الله يؤتيه من يشاء وهو يبخل بفضل الله تبارك وتعالى.

رابعاً: أنه خذل أولياء الله أو يريد خذلانهم، وزوال النعمة عنهم، وهذا من الخذلان.

خامساً: أنه أعان عدوه إبليس[3].

وقد أجمل الماوردي مساوئ الحسد في أربعة أمور:

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣/ ١٩٢ بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٣/ ٢٤٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢٠/ ٢٦٠.

١- **حسرات الحسد وسقام الجسد،** ثم لا يجد لحسرته انتهاء، ولا يؤمل لسقامه شفاء، قال ابن المعتز: الحسد داء الجسد.

٢- **انخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة؛** لانحراف الناس عنه، ونفورهم منه، وقد قيل في منثور الحكم: الحسود لا يسود.

٣- **مقت الناس له،** حتى لا يجد فيهم محباً، وعداوتهم له، حتى لا يرى فيهم ولياً، فيصير بالعداوة مأثوراً، وبالمقت مزجوراً.

٤- **إسخاط الله تعالى في معارضته،** واجتناء الأوزار في مخالفته، إذ ليس يرى قضاء الله عدلاً، ولا لنعمه من الناس أهلاً[١].

وقال الجاحظ مؤكداً على هذه المساوئ: «الحسد -أبقاك الله- داء ينهك الجسد، ويفسد الود، علاجه عسر، وصاحبه ضجر، وهو باب غامض، وأمر متعذر، فما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه في عناء»[٢].

ثم قال: «ولو لم يدخل -رحمك الله- على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه، واستمكان الحزن في جوفه، وكثرة مضضه[٣]، ووسواس ضميره، وتنغيص عمره، وكدر نفسه، ونكد لذاذة معاشه، إلا استصغاره لنعمة الله عنده، وسخطه على سيده بما أفاد الله عبده، وتمنيه عليه أن يرجع في هبته إياه، وألا يرزق أحداً سواه، لكان عند ذوي العقول مرحوماً، وكان عندهم في القياس مظلوماً»[٤].

٥- **الشحناء، والبغضاء،** المقاطعة، والهجر، والغيبة والنميمة، وأذية المؤمن بغير حق، وقد نهى الله ورسوله عن ذلك كله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ۝٥٨﴾[٥].

---

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص: ٢٧٣.

(٢) الرسائل، للجاحظ: ٣/ ٣ - ٤.

(٣) توجعه.

(٤) الرسائل، للجاحظ: ٣/ ٥.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٥٨.

وقال ﷺ: «**لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا...**»[١].

٦- **الظلم والعدوان**؛ كما في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته؛ فإنهم لما رأوا ما ليوسف عند أبيه من المكانة والمنزلة والفضل حسدوه على ذلك، فدبّروا له تلك المكيدة النكراء، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾[٢].

فقد ذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف وعبّر عما في قلوبهم بقوله: ﴿قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾[٣] فبيّن تعالى أن حسدهم له عبارة عن كراهتهم حصول تلك النعمة له»[٤].

فقد «كان يعقوب قد كلف بهما؛ لموت أمهما، وزاد في المراعاة لهما، فذلك سبب حسدهم لهما، وكان شديد الحب ليوسف، فكان الحسد له أكثر، ثم رأى الرؤيا فصار الحسد له أشد»[٥].

٧- **تفكك المجتمع وانتشار الجرائم**؛ كالسرقة والقتل؛ كما في قصة ابني آدم «هابيل وقابيل»، فقد كان الحسد الدافع وراء أول جريمةٍ على الأرض على ما ساقه الله من فضل وإكرام لعبده الذي قرّب إليه قرباناً فتقبّله منه، إشارة إلى رضاه عنه، فحسده أخوه على ذلك الفضل[٦].

---

(١) رواه مسلم من حديث أنس.

(٢) سورة يوسف، آية: ٧، ٨، ٩.

(٣) سورة يوسف، آية: ٨، ٩.

(٤) مفاتيح الغيب، للرازي: ٣/ ٦٤٦.

(٥) النكت والعيون، للماوردي: ٣/ ٩.

(٦) للمزيد ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٧٣.

أثر الحسد في رد الحق:

الحسد فطرة جُبلت عليه النفوس، ولكن المؤمن يخفيه، ويجاهد نفسه على التخلّص منه.

وعليه، فليس العيب في الحسد بحد ذاته، ولكن العيب فيما يترتب عليه، فإذا ترتب عليه مفسدة على الحاسد نفسه، أو على المحسود أو صار معيباً مذموماً: «قلت: قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيتبع مساوئه، ويطلب عثراته»[1].

ومن المفاسد المترتبة على الحاسد ذاته -ناهيك المفاسد المرتبة على المحسود وعلى المجتمع-: رد الحق، وعدم قبوله، يقول ابن القيم وهو يتحدث عن أسباب رد الحق: «ومن أعظم هذه الأسباب: «الحسد» فإنه داء كامن في النفس، ويرى الحاسد المحسود قد فضل عليه، وأوتي ما لم يؤت نظيره، فلا يدعه الحسد أن ينقاد له ويكون من أتباعه»[2].

وهذا الداء هو الذي جعل إبليس يرفض أمر الله له بالسجود لآدم عليه السلام؛ فإنه لما رأى تكريم الله لآدم عليه السلام وتشريفه له حيث أمر سبحانه الملائكة بالسجود له؛ حسده إبليس على هذه المنزلة، فامتنع عن السجود لآدم معتذراً بأعذار واهية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾[3].

قال قتادة: «حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام ما أعطاه من الكرامة، وقال: أنا ناري، وهذا طيني»[4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢٠/ ٢٥٩.

(٢) هداية الحيارى، لابن القيم: ١/ ٢٤٥.

(٣) سورة الأعراف، آية: ١١، ١٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ١٠١.

وقال ابن عطية: «وكان أصل ذلك الحسد، ولذلك قيل: إن أول ما عصي الله بالحسد، وظهر ذلك من إبليس من قوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾[1]، ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[2]»[3].

وقال ابن القيم: «وهل منع إبليس من السجود لآدم إلا الحسد؟! فإنه لما رآه قد فُضِّل عليه ورُفع فوقه، غص بريقه واختار الكفر على الإيمان بعد أن كان بين الملائكة»[4].

وهذا الداء هو منع اليهود والنصارى من قبول الحق والهدى والنور الذي جاء به محمد ﷺ، فقد بيّن الله تعالى أن أهل الكتاب الذين كفروا بمحمد ﷺ حسدوه على ما آتاه الله من فضله، حتى إنهم زعموا أن كفار مكة أهدى من المؤمنين برسالة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾[5].

والناس في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ «هنا عام أريد به الخصوص وهو النبي ﷺ»[6].

قال ابن كثير: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ﴾ «يعني

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٦٢.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٢.

(٣) المحرر الوجيز، لابن عطية: ٣/ ٤٦٩.

(٤) هداية الحيارى، لابن القيم: ٢/ ٢٤٥.

(٥) سورة النساء: ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤.

(٦) أضواء البيان، للشنقيطي: ٩/ ١٦٣.

بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له، لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل»[١].

وقال القاسمي: «إن الحسد لا يحصل إلا عند الفضيلة، فكلما كانت فضيلة الإنسان أتم وأكمل كان حسد الحاسدين عليه أعظم، ومعلوم أن النبوة أعظم المناصب في الدين، ثم إنه تعالى أعطاها لمحمد ﷺ وضم إليها أنه جعله كل يوم أقوى دولة وأعظم شوكة وأكثر أنصاراً وأعواناً»[٢].

وهذا الداء هو الذي جعل كفار قريش يرفضون الاعتراف بنبوة محمد ﷺ، وأنه رسول من عند الله، وذلك أنهم ظنوا أن النبوة مبنية على مقاييسهم الدنيوية المختلة، قال الله تعالى حاكياً قصتهم وموبخاً لهم على سوء فهمهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[٣].

ونظير هذه الآية قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾[٤]، ونحوها قوله عز وجل: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾[٥]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

ومن هذا الباب كان حسد أكثر الكفار للرسول عليه الصلاة والسلام إذ قالوا: كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأطئ له رؤوسنا؟ فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾، وقال تعالى يصف قول قريش: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[٦]

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٦٣٥ - ٦٣٦.

(٢) محاسن التأويل، للقاسمي: ٣/ ١٧٥.

(٣) سورة الزخرف، آية: ٣١.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٢١.

(٥) سورة المدثر آية: ٥٢.

(٦) سورة الأنعام، آية: ٥٣.

كالاستحقار بهم والأنفة منهم[1].

وقد جاء في الأثر: أن أبا جهلٍ وأبا سفيان بن حرب والأخنس بن شريق التقوا وقد انصرفوا من حول بيتٍ رسول الله ﷺ وقد جاؤوا لا يعرف كل واحد منهم من خبر الآخر شيئاً، يستمعون إلى رسول الله ﷺ يتلو القرآن الكريم، وكان ذلك لقاءهم الثالث، وتعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها فيروا على غير ما يعهدهم الناس، وفي صباح اليوم الثالث، دلف الأخنس بن شريق إلى بيت أبي جهل، يستطلع الأثر الذي تركه سماع القرآن الكريم من فم رسول الله ﷺ في نفس أبي جهل، ويسأل الأخنس: فيم سمع من محمد؟ ويرد أبو جهل: ما سمعت! (أي مثل ما سمعت يا أخنس): «تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى كنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه»، وانكشف للأخنس ما انطوت عليه نفس أبي جهل[2].

وقد سجل القرآن هذه الحادثة مبيناً ما انطوت عليه قلوبهم من الحسد لمحمد ﷺ، وعداوتهم له، وطعنهم فيه، وردهم لرسالته، فقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[3].

قال النسفي: «وربك يعلم ما تضمر صدورهم من عداوة رسول الله ﷺ وحسده، وما يعلنون من مطاعنهم فيه، وقولهم: هلا اختير عليه غيره في النبوة؟»[4].

وهذا الداء هو الذي وقف عقبة بين كفار قريش وبين الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ من الآيات البينات، والحقائق الواضحات، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ

(١) مفاتيح الغيب، للرازي: ٣/ ٦٤٨.

(٢) دلائل النبوة، للبيهقي: ٢/ ٢٠٦.

(٣) سورة القصص، آية: ٦٩.

(٤) مدارك التنزيل، للنسفي: ٢/ ٦٥٤.

لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[1].

بل شدة حسد الكفار لمحمد ﷺ كادوا أن يصيبوه بأعينهم الشريرة، قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ ﴾[2].

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ لينفذونك بأبصارهم، أي: ليعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم[3].

دواء الحسد:

يجب مجانبة الحسد وتصفية القلب منه، ومجاهدة النفس على التخلص منه، **قال أبو حاتم**: «الواجب على العاقل مجانبة الحسد على الأحوال كلها»[4].

وقد ذكر العلماء دواء الحسد في عدة أمور، أجملها الرازي في أمرين: «العلم، والعمل.

أما العلم، ففيه مقامان إجمالي وتفصيلي.

أما الإجمالي فهو: أن يعلم أن كل ما دخل في الوجود فقد كان ذلك من لوازم قضاء الله وقدره؛ لأن الممكن ما لم ينته إلى الواجب لم يقف، ومتى كان كذلك فلا فائدة في النفرة عنه، وإذا حصل الرضا بالقضاء زال الحسد..

وأما التفصيلي فهو: أن تعلم أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا، وأنه ليس فيه على المحسود ضرر في الدين والدنيا، بل ينتفع به في الدين والدنيا.

وأما العمل النافع، فهو أن يأتي بالأفعال المضادة لمقتضيات الحسد، فإن بعثه

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.

(٢) سورة القلم، آية: ٥١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٨/ ٢١٩.

(٤) روضة العقلاء، لابن حبان، ص: ١٣٣.

الحسد على القدح فيه كلف لسانه المدح له، وإن حمله على التكبّر عليه كلف نفسه التواضع له، وإن حمله على قطع أسباب الخير عنه كلف نفسه السعي في إيصال الخيرات إليه، فمهما عرف المحسود ذلك طاب قلبه وأحب الحاسد»[1].

ونشرح ونبيّن ونضيف إلى ما ذكره الرازي عدة أمور:

١- قطع النظر عن الناس، وتعليق قلبه بالله سبحانه وتعالى، وسؤاله من فضله.

٢- المنافسة في الأعمال الصالحة لا في أمور الدنيا.

٣- أن يدرّب نفسه على قول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، والدعاء بالبركة، إذا أعجبه شيء.

٤- الدعاء للمحسود بالزيادة من فضل الله تعالى، إذا وجد في نفسه شيئاً من الحسد المذموم.

٥- الرضا بقضاء الله وقدره، والتسليم لحكمه، فهو الذي يعطي النعم ويسلبها، قال تعالى: ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** (٣٢) ﴾[2].

٦- التفكر في نتائج الحسد، والنظر في عواقبه الوخيمة عليه وعلى من حوله؛ فهو يتألم بحسده ويتنغص في نفسه، فيبقى مغموماً، محروماً، متشعب القلب، ضيق الصدر، قد نزل به ما يشتهيه الأعداء له، ويشتهيه لأعدائه، قال تعالى: ﴿ **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** ﴾[3].

٧- أن يحذر نفور الناس منه، وبُعدهم عنه، وبُغضهم له؛ لأن الحسد يظهر

---

(١) مفاتيح الغيب، للرازي: ٣/ ٦٤٩.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٣٢.

(٣) سورة فاطر، آية: ٤٣.

في أعمال الجوارح، قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾[١]، فيخاف عداوتهم له وملامتهم إياه، فيتألفهم بمعالجة نفسه، وسلامة صدره.

٨- أن يصرف شهوة قلبه في مرضاة الله تعالى: فقد جعل الله في الطاعة والحلال ما يملأ القلب بالخير، وما من صفة من الصفات إلا وجعل لها مصرفاً ومحلاً ينفذها فيه، فجعل لصفة الحسد مصرفاً وهو المنافسة في فعل الخير، والغبطة عليه، والمسابقة إليه، وجعل لصفة الكبر التي تؤدي للحسد مصرفاً، هو التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم، وجعل لقوة الحرص مصرفاً وهو الحرص على ما ينفع، كما قال النبي ﷺ: «**احرص على ما ينفعك**»[٢] [٣].

وعلى صاحب النعم أن يخفي بعضها إذا كان في إظهارها مفسدة، قال الله تعالى عن سيدنا يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٨.

(٢) رواه مسلم.

(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣/ ١٩٦- ٢٠٠، والتبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص: ٤١٥.

(٤) سورة يوسف، آية: ٦٧.



المبحث الرابع

الكبر

تعريف الكبر:

الكبر لغة: الكبر: العظمة: وهو اسم كالكبرياء، وهو مأخوذ من مادة: «ك ب ر» التي تدل على خلاف الصغر، **قال ابن فارس**: «الكبر: العظمة، وكذلك الكبرياء، يقال: ورثوا المجد كابراً عن كابر، أي كبيراً عن كبير في الشرف والعز»(١).

وذكر ابن منظور: أن الكِبر بالكسر والكبرياء العظمة والتجبر... وقد تكبّر، واستكبر، وتكابر، وقيل: تكبّر: من الكبر، وتكابر من السن، والتكبّر والاستكبار: التعظّم(٢).

الكبر اصطلاحاً: عرّفه النبي ﷺ بقوله: «**الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**»(٣)، فهذا أجمع وأمنع تعريف للكِبر.

وعرّفه الزبيدي بقوله: «التكبّر: حالة يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وأن يرى نفسه أكبر من غيره»(٤).

وعرّفه الكفوي بقوله: «التكبّر: أن يرى المرء نفسه أكبر من غيره، والاستكبار طلب ذلك التشبع وهو التزيّن بأكثر مما عنده»(٥).

وعرّفه الغزالي بقوله: «الكِبر: استعظام النفس، ورؤية قدرها فوق قدر الغير»(٦).

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس: ٥/ ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) لسان العرب، لابن منظور: ٥/ ١٢٦.

(٣) رواه مسلم.

(٤) تاج العروس، لمرتضى الزبيدي: ١٤/ ٩.

(٥) الكليات، للكفوي، ص: ٢٨.

(٦) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣/ ٣٥٣

وعرّفه التهانوي: «الكِبر: جهل الإنسان بنفسه، وإنزالها فوق منزلتها»[1].

أقسام الكبر:

قسّم العلماء الكِبر إلى ثلاثة أقسام بعضها أشد من بعض، وممن قسمه ابن حجر الهيتمي، فقال: «الكبر: إما على الله تعالى، وهو أفحش أنواع الكبر؛ كتكبّر فرعون ونمرود حيث استنكفا أن يكونا عبدين له تعالى وادعيا الربوبية.

وإما على رسوله بأن يمتنع عن الانقياد له تكبراً جهلاً وعناداً؛ كما حكى الله ذلك عن كفار مكة وغيرهم من الأمم.

وإما على العباد بأن يستعظم نفسه ويحتقر غيره ويزدريه فيأبى على الانقياد له أو يترفع عليه ويأنف من مساواته، وهذا، وإن كان دون الأولين إلا أنه عظيم إثمه أيضاً؛ لأن الكبرياء والعظمة إنما يليقان بالملك القادر القوي المتين دون العبد العاجز الضعيف»[2].

حكم الكِبر:

يختلف حكم الكبر بناء عن ماهية المتكبر عليه؛ فمن الكبر ما يكون كفراً أكبر مخرجاً من الملة يستحق صاحبه الخلود في النار، ومن الكبر ما يكون صاحبه مرتكباً لكبيرة من الكبائر يستحق العقوبة، ومع ذلك هو تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، وتفصيل ذلك يتحدث عنه القرطبي فيقول: «لما تقرر أن الكبر يستدعي متكبراً عليه، فالمتكبر عليه: إن كان هو الله تعالى، أو رسله، أو الحق الذي جاءت به رسله؛ فذلك الكبر كفر، وإن كان غير ذلك فذلك الكبر معصية وكبيرة، يخاف على المتلبس بها المصر عليها أن تفضي به إلى الكفر، فلا يدخل الجنة أبداً. فإن سلم من ذلك، ونفذ عليه الوعيد، عوقب بالإذلال والصغار، أو بما شاء الله من عذاب النار، حتى لا يبقى في قلبه من ذلك الكبر مثقال ذرة، وخلص من خبث كبره حتى يصير كالذرة؛ فحينئذ

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون، محمد على التهانوى: ٢/ ٥٦٢.

(٢) الزواجر، لابن حجر الهيتمي، ص: ١١٨ بتصرف.

يتداركه الله تعالى برحمته، ويخلصه بإيمانه وبركته»[1].

وقال ابن عثيمين: «فالذي في قلبه كبر، إما أن يكون كبراً عن الحق وكراهة له، فهذا كافر مخلّد في النار ولا يدخل الجنة؛ لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾[2]، ولا يحبط العمل إلا بالكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢١٧﴾[3].

وأما إذا كان كبراً على الخلق وتعاظماً على الخلق، لكنه لم يستكبر عن عبادة الله فهذا لا يدخل الجنة دخولاً كاملاً مطلقاً لم يسبق بعذاب، بل لابد من عذاب على ما حصل من كبره وعلوائه على الخلق، ثم إذا طهر دخل الجنة»[4].

بواعث الكبر وأسبابه:

الكبر منه ما هو غريزي فُطر عليه الإنسان، **قال أبو علي الجوزجاني**: «النفس معجونة بالكبر...»[5].

ومن الكبر ما هو مكتسب ببواعث وأسباب إجمالية وتفصيلية.

أما الإجمالية: فاعتقاد الكمال: **قال ابن قدامة**: «فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن كمالاً أمكن أن يتكبر به؛ حتى الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور لظنه أن ذلك كمال»[6].

وأما التفصيلية فهي كما يقول الغزالي: «... وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي.

---

(١) المفهم شرح صحيح مسلم، للقرطبي: ٢/ ٥٠.

(٢) سورة محمد، آية: ٩.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢١٧.

(٤) شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين: ٣/ ٥٤١ - ٥٤٢.

(٥) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣/ ٣٤٣.

(٦) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة، ص: ٢٢٩.

فالديني هو: العلم والعمل.

والدنيوي هو: النسب، والجمال، والقوة، والمال، وكثرة الأنصار»[1].

ثم فصّل الغزالي في هذه البواعث والأسباب[2].

شمولية الكبر للجنس البشري:

الكبر يشمل جميع الجنس البشري، فليس حكراً على أمة أو على طبقة، أو على فئة بعينها، ولكنه يقل ويكثر تبعاً لأسباب الكبر وبواعثه.

فعلى سبيل المثال: الكبر ليس مقتصراً على فئة الأغنياء، ولكنه يكثر فيهم، وليس معدوماً بين فئة الفقراء؛ فقد جاء في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»[3]، فالكبر مذموم من الغني ومن الفقير، لكنه من الفقير أشد ذماً، قال أحد العلماء: «والتكبر في الخلق كلهم قبيح، وفي الفقراء أقبح»[4].

داء الكبر:

الكبر أصل الأخلاق المذمومة كلها، فالفخر والبطر، والأشر والعُجب، والحسد والبغي، والخيلاء والظلم، والقسوة والتجبر، والإعراض وإباء قبول النصيحة، والاستئثار وطلب العلو، وحب الجاه والرئاسة، وأن يحمد بما لم يفعل، وأمثال ذلك؛ كلها ناشئة من الكبر[5].

وهو آفة عظيمة هائلة يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والزهّاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته وقد قال ﷺ:

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣/ ٣٤٧.

(٢) للمزيد ينظر: إحياء علوم الدين: ٣/ ٣٤٨، وما بعدها.

(٣) رواه مسلم.

(٤) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣/ ٣٤٣.

(٥) الفوائد، لابن القيم، ص: ١٤٣.

«**لايدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[1]، وإنما صار حجاباً دون الجنة؛ لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر يغلق تلك الأبواب كلها؛ لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من الكبر.

فما من خُلق ذميم إلا وصاحب الكبر مضطر إليه ليحفظ كبره، وما من خُلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزّه. فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه[2].

وهو أحد أركان الكفر الأربعة[3] **-إضافة إلى الحسد والغضب والشهوة-.**

والكبر مع الكفر «أساس كل ذنب في الإنس والجن، فإن إبليس هو الذي فعل ذلك أولاً، وهو أصل ذلك»[4].

وهو ينافي حقيقة العبودية[5]. وهو السيئة التي لا تنفع معها حسنة[6].

وهو شر استعاذ منه -ومن المبتلين به- الأنبياء عليهم السلام، فهذا موسى عليه السلام يقول: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾[7]، وهكذا بقية الرسل استعاذوا من الكبر، ومن المبتلين به.

والله يبغض الكبر وأهله، و﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[8].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣/ ٣٤٥ بتصرف.
(٣) الفوائد، لابن القيم، ص: ١٥٧.
(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٨/ ٣٣٠.
(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٠/ ١٩٦.
(٦) التواضع، لابن أبي الدنيا، ص: ٢٧٧.
(٧) سورة غافر، آية: ٢٧.
(٨) سورة النحل، آية: ٢٣.

أثر الكبر في رد الحق:

الكبر في حقيقته وماهيته هو رد الحق واحتقار أهله، كما بيّن ذلك النبي ﷺ بقوله: «**الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**»[1].

ففي هذه العبارة الجامعة من جوامع كلمه ﷺ بيّن ﷺ حقيقة الكبر؛ موضحاً أشنع عواقبه وأخطر آثاره، وهو: رد الحق، واحتقار أهله.

و«**بطر الحق**» دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً[2].

«**وغمط الناس**» ازدراؤهم واحتقارهم[3].

فقد فسر النبي ﷺ: «**الكبر ببطر الحق**»، وهو التكبر عليه، والامتناع من قبوله كبراً إذا خالف هواه.

وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم، وذلك يحصل من النظر إلى النفس بعين الكمال، وإلى غيره بعين النقص»[4].

و«**الكبر يمنعه الانقياد**»[5]. و«**ما ترك أحد حقاً إلا لكبرٍ في نفسه**»[6].

والباعث على رد المتكبر للحق: أنه «ينظر إلى نفسه بعين الكمال، وإلى غيره بعين النقص، فيحتقرهم ويزدريهم، ولا يراهم أهلاً لأن يقوم بحقوقهم، ولا أن يقبل من أحد منهم الحق إذا أورده عليه»[7].

وذلك بأن يكون الإنسان على جهالة أو باطل، كما يقول عبدالرحمن المعلمي: «فيجيء آخر فيبين له الحجة، فيرى أنه إن اعترف كان معنى ذلك

---

(١) رواه مسلم.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم، للنووي: ٢/ ٩٠.

(٣) اقتضاء الصراط، لابن تيمية: ٢/ ٣٧٧.

(٤) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ١/ ٣٠٧.

(٥) الفوائد، لابن القيم، ص: ١٥٧.

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية: ٢/ ١٢٠.

(٧) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ٢/ ٢٧٥.

اعترافه بأنه ناقص، وأن ذلك الرجل هو الذي هداه، ولهذا ترى من المنتسبين إلى العلم من لا يشق عليه الاعتراف بالخطأ إذا كان الحق تبين له ببحثه ونظره، ويشق عليه ذلك إذا كان غيره هو الذي بيّن له»[1].

وقال ابن القيم: «ولما كان لصاحب الحق مقال وصولة كانت النفوس المتكبرة لا تقر له بالصولة على تلك الصولة التي فيها، ولا سيما النفوس المبطلة، فتصول على صولة الحق بكبرها وباطلها»[2].

والاستكبار عن الحق على نوعين:

النوع الأول: الاستكبار عن الحق كلياً؛ كحال الأمم والأفراد الذين رفضوا الانقياد للرسل بالكلية.

النوع الثاني: الاستكبار عن بعض الحق؛ كأولئك الذين رفضوا الانقياد للحق في مسالة معينة؛ كحال ذلك الرجل الذي أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال له النبي ﷺ: «**كل بيمينك**» قال: لا أستطيع، قال: «**لا استطعت**»، ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه»[3].

فكل من رد الحق فإنه مستكبر عنه بحسب ما رد من الحق، كما يقول عبدالرحمن ناصر آل سعدي: «فالمتكبرون عن الانقياد للرسل بالكلية كفار مخلدون في النار؛ فإنه جاءهم الحق على أيدي الرسل مؤيداً بالآيات والبراهين، فقام الكبر في قلوبهم مانعاً، فردوه.

وأما المتكبرون عن الانقياد لبعض الحق الذي يخالف رأيهم وهواهم؛ فهم -وإن لم يكونوا كفاراً- فإن معهم من موجبات العقاب بحسب ما معهم من الكبر، وما تأثروا به من الامتناع عن قبول الحق الذي تبين لهم بعد مجيء الشرع به»[4].

---

(١) القائد في إصلاح العقائد، للمعلمي، ص: ١٣.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٣١٨.

(٣) رواه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع.

(٤) بهجة قلوب الأبرار، لابن سعدي، ص: ١٦٥.

ومن تكبّر عن الانقياد للحق فإنما تكبّره على الله كما **يقول ابن القيم**: «فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته، ومنه وله. فإذا رده العبد وتكبّر عن قبوله فإنما رد على الله، وتكبّر عليه»(١).

وعلامة المتكبّر عن الحق: أنه يؤتى إليه بالأدلة من الكتاب والسُّنَّة، ويقال: هذا كتاب الله، هذه سُنَّة رسول الله، ولكنه لا يقبل؛ بل يستمر على رأيه.

«وكثير من الناس ينتصر لنفسه، فإذا قال قولاً لا يمكن أن يتزحزح عنه، ولو رأى الصواب في خلافه»(٢).

وقد توعّد الله الذين لا يصغون للحق، ولا يقبلونه، ولا يعملون به، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾(٣).

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ: **«ويل لأقماع القول»**(٤).

و«أقماع القول» هم الذين آذانهم كالقمع يدخل فيه سماع الحق من جانب، ويخرج من جانب آخر لا يستقر فيه»(٥).

و«ذم الله تعالى من يرد الحق إذا جاء به من يبغضه، ويقبله إذا جاء به من يحبه. قال بعض الصحابة: أقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، وأرد الباطل على من قاله ولو كان حبيباً»(٦).

والواجب التواضع للحق، والانقياد له، وقبوله ممن كان، قال بعض السلف: «التواضع أن تقبل الحق من كل من جاء به، وإن كان صغيراً، فمن قبل الحق ممن

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٣١٧.

(٢) شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين: ٣/ ٥٣٦ - ٥٣٧.

(٣) سورة الجاثية، آية: ٧، ٨.

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد: ٣٨٠، وصححه الألباني.

(٥) فتح الباري، لابن حجر: ١/ ١٨١.

(٦) مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٨٢.

جاء به، سواء كان صغيراً أو كبيراً، وسواء كان يحبه أو لا يحبه، فهو متواضع، ومن أبى قبول الحق تعاظماً عليه، فهو متكبر»[1].

وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع، فقال: «يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله»[2].

وبين ابن القيم حقيقة التواضع للحق، فقال: «أن يتلقّى سلطان الحق بالخضوع له، والذل، والانقياد، والدخول تحت رقّه، بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك في مملوكه»[3].

وحقيقة دين الإسلام الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هو أن يستسلم العبد لله، لا لغيره، فالمستسلم له ولغيره مشرك، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر[4].

وقبول الحق الذي جاء به الرسول ﷺ يكون بثلاثة أشياء:

الأول: ألا يعارض شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم، المسماة: بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة.

الثاني: ألا يتهم دليلاً من أدلة الدين، بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة، أو قاصرها، أو أن غيره كان أولى منه.

الثالث: ألا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة لا بباطنه، ولا بلسانه ولابفعله، ولا بحاله[5].

عقوبات الكبر:

للكبر عقوبات كثيرة في الدنيا والآخرة، فمن عقوباته في الدنيا:

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ١/ ٣٠٧.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٣١٤.

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٣١٧.

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٠/ ١٩٥.

(٥) مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٣١٨ - ٣١٩.

أولاً: صرف المتكبر عن فهم آيات الله، والاهتداء بها: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾[1].

فالمستكبرون المتبعون أهواءهم مصروفون عن آيات الله لا يعلمون ولايفهمون لما تركوا العمل بما علموه استكباراً واتباعاً لأهوائهم عوقبوا بأن مُنعوا الفهم والعلم[2].

ثانياً: زوال النعم وحلول النقم: كما يدل على ذلك حديث: «**كل بيمينك**» قال: لا أستطيع، قال: «**لا استطعت**» ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه[3] صارت والعياذ بالله قائمة كالعصا، لا يستطيع رفعها؛ لأنه استكبر على دين الله عز وجل[4].

ثالثاً: الذلة والصغار: فكل «من تكبّر عن الانقياد للحق أذلّه الله ووضعه، وصغّره وحقّره»[5].

رابعاً: استحالة التوبة: قال سفيان بن عيينة: «من كانت معصيته في شهوة، فأرجو له التوبة، فإن آدم -عليه السلام- عصى مشتهياً فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر، فأخشى عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبراً فلعن»[6].

وغير ذلك من العقوبات الدنيوية.

وأما عقوباته في الآخرة، فمنها:

أولاً: الذل والمهانة يوم الحشر في عرصات القيامة: فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ،قال: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في**

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٤٦.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٧/ ٦٢٦.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين: ٣/ ٥٤٣.

(٥) مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٣١٧.

(٦) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة، ص: ٢٧١.

صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال»[(١)].

ثانياً: الحرمان من دخول الجنة: فعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[(٢)].

ثالثاً: دخول النار: قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[(٣)] مأوى ومسكن لمن تكبّر على الله، فامتنع من توحيده، والانتهاء إلى طاعته فيما أمره ونهاه عنه[(٤)].

وعن وحارثة بن وهب الخزاعي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «... **ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل، جواظ مستكبر**»[(٥)].

وفي حديث احتجاج الجنة والنار قالت النار: «**يدخلني الجبارون، والمتكبرون**»[(٦)].

رابعاً: دخول النار بصغار وحقارة ومهانة: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي عن دعائي وتوحيدي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي صاغرين حقيرين[(٧)] يجتمع عليهم العذاب والإهانة، جزاء على استكبارهم[(٨)]، ويعذبون عذاب الهون، قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾[(٩)] دلّت

---

(١) رواه الترمذي، وقال: «حديث حسن»، وحسنه الألباني.

(٢) رواه مسلم.

(٣) سورة الزمر، آية: ٦٠.

(٤) جامع البيان، لابن جرير: ٢١/ ٣١٩.

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٧/ ١٤٠

(٨) تيسير الكريم الرحمن، لابن سعدي: ص: ٧٤١

(٩) سورة الأحقاف، آية: ٢٠

هذه الآية الكريمة على أن الاستكبار في الأرض والفسق من أسباب عذاب الهون، وهو عذاب النار[1].

وغير ذلك من العقوبات الأخروية.

وسائل التخلّص من الكبر وعلاجه:

الكبر من المهلكات، والتخلّص منه وعلاجه فرض عين، ولا يمكن علاجه بمجرد التمني بل بالمعالجة الحقيقية، ومن ذلك:

١- **استئصال أصل الكبر من القلب**: وذلك بأن يعرف العبد نفسه، ويعرف ربه؛ فإذا عرف نفسه حق المعرفة علم أنه لا يليق به إلا التواضع، وإذا عرف ربه حق المعرفة علم أن الكبرياء والعظمة لا تليق إلا به.

٢- **النظر والتأمل في بواعث الكبر، وأسبابه**، وإدراكه أنه لا يليق به التكبر بها.

٣- **تذكير النفس بعواقب الكبر وآثاره السيئة**، سواء كانت عواقب دنيوية، أو أخروية.

٤- **الانسلاخ من صحبة المتكبرين**، ومجالسة المتواضعين.

٥- **إظهار الآخرين بنعمة الله عليهم**، وتحدثهم بها لا سيما أمام المستكبرين.

٦- **التذكير بمعايير التفاضل في الإسلام**، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[2]، وقال ﷺ: «**أنتم بنو آدم، وآدم من تراب**»[3].

٧- **المواظبة على الطاعات، ومن ذلك**: السجود، **قال يحيى بن جعدة**: «من وضع جبينه لله ساجداً فليس بمتكبر وقد برئ من الكبر»[4].

---

(١) أضواء البيان، للشنقيطي: ٧/ ٢٣١

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٣) رواه أبو داود: ٤/ ٣٣١، وحسّنه الألباني.

(٤) الزهد، لوكيع بن الجراح: ٢/ ٦٣٦.

٧- **الاقتداء بالنبي** ﷺ والتأسّي به، فهو سيد المتواضعين.

٨- **التأمّل في سيرة العلماء المتواضعين**: روي أن عمر بن عبد العزيز، أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه، فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنبه الغلام، فقال: هي أول نومة نامها، فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتاً، فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين، فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء وخير الناس من كان عند الله متواضعاً(١).

٩- **نصح المتكبرين**، وعدم تشجيعهم على ذلك، فإن استكانة بعض الناس وذلهم يدفع المتكبرين إلى مزيد من التكبر، بل ينبغي تأديبهم ومعاقبتهم.

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٣/ ٣٥٥.



المبحث الخامس

الظلم

تعريف الظلم:

الظلم لغة: الظلم: الجور ومجاوزة الحد: يقال: ظلمه، يظلمه ظلماً، وظلماً، ومظلمة، فالظلم مصدر حقيقي، والظلم الاسم، وهو ظالم وظلوم[1].

وأصل المادة تدل على أصلين، قال ابن فارس: «الظاء واللام والميم أصلان صحيحان، أحدهما: خلاف الضياء والنور، والآخر: وضع الشيء غير موضعه تعدياً»[2].

الظلم اصطلاحاً: قال الراغب: «الظلم: وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته، أو مكانه»[3].

وقال الجرجاني: «عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور، وقيل: هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد[4].

وقال الكفوي: «الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والتصرف في حق الغير، ومجاوزة حد الشارع»[5].

أنواع الظلم:

قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة[6]:

---

(١) تهذيب اللغة، للأزهري: ١٤/ ٢٧٤.

(٢) مقاييس اللغة، لابن فارس: ٣/ ٤٦٨، وللمزيد: ينظر: مختار الصحاح، للرازي، ص: ١٩٧، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي، ص: ١١٣٤.

(٣) المفردات، للراغب، ص: ٥٣٧.

(٤) التعريفات، للجرجاني، ص: ١٤٤.

(٥) الكليات، للكفوي، ص: ٥٩٤.

(٦) المفردات، للراغب، ص: ٣١٥ – ٣١٦.

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[1]، وإياه قصد بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾[2].

الثاني: ظلم بينه وبين الناس: وإياه قصد بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[4].

الثالث: ظلم بينه وبين نفسه: وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ نفسي﴾[6].

حكم الظلم:

يختلف حكم الظلم بناء على نوعية الظلم، فإذا كان الظلم ظلماً أكبر؛ كالشرك؛ فإن هذا الظلم لا يغفره الله إلا بالتوبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾[7].

وإذا كان الظلم متعلقاً بحق من حقوق العباد، فإن هذا الظلم لا يترك الله منه شيئاً، فلابد من القصاص في الدنيا أو في الآخرة إلا بالعفو والمسامحة.

---

(١) سورة لقمان، آية: ١٣.

(٢) سورة هود، آية: ١٨.

(٣) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٤) سورة الشورى، آية: ٤٢.

(٥) سورة فاطر، آية: ٣٢.

(٦) سورة القصص، آية: ١٦.

(٧) سورة النساء، آية: ٤٨.

وأما إذا كان الظلم متعلقاً بالعبد نفسه كتركه لواجب، أو فعله معصية، ولم تصل المعصية إلى حد الشرك؛ فإن الإنسان تحت مشيئة الله، إن شاء الله غفره، وإن شاء عذب به.

قال ابن تيمية: «فالظلم ثلاثة أنواع: فالظلم الذي هو شرك لا شفاعة فيه.

وظلم الناس بعضهم بعضاً لابد فيه من إعطاء المظلوم حقّه لا يسقط حق المظلوم لا بشفاعة ولا غيرها، ولكن قد يعطى المظلوم من الظالم كما قد يغفر لظالم نفسه بالشفاعة.

فالظالم المطلق ما له من شفيع مطاع.

وأما الموحد فلم يكن ظالما مطلقاً، بل هو موحد مع ظلمه لنفسه، وهذا إنما نفعه في الحقيقة إخلاصه لله فبه صار من أهل الشفاعة»[1].

وقال ابن القيم: «ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل، فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محواً؛ فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفّرة، ونحو ذلك.

بخلاف ديوان الشرك فإنه لا يمحى إلا بالتوحيد.

وديوان المظالم لا يمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منها.

ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله عز وجل حرم الجنة على أهله فلا تدخل الجنة نفس مشركة»[2].

وقال ابن القيم أيضاً: «وأما حديث: الدواوين، فإنما فيه أن حق الرب تعالى لا يؤوده أن يهبه ويسقطه ولا يحتفل به ويعتني به كحقوق عباده، وليس معناه أنه لا يؤاخذ به ألبتة، أو أنه كله صغائر، وإنما معناه أنه يقع فيه من المسامحة والمساهلة والإسقاط والهبة ما لا يقع مثله في حقوق الآدميين»[3].

وفي الحقيقة: أن كل أنواع الظلم المذكورة ظلم للإنسان نفسه.

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٧/ ٧٨.

(٢) الوابل الصيب، لابن القيم، ص: ١٩.

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ٣٣٦.

الظلم طبيعة إنسانية:

الظلم طبيعة إنسانية، وجِبلّة بشرية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾[1]., فطبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرئ على المعاصي مقصّر في حقوق ربه كفّار لنعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به»[2].

وقال تعالى موضحاً أن الظلم والجهل طبيعية إنسانية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾[3].

فالإنسان كما يقول ابن القيم: «خُلق في الأصل ظلوماً جهولاً، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويلهمه رشده، فمن أراد به خيراً علّمه ما ينفعه، فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علّمه فخرج به عن الظلم ومن لم يرد به خيراً أبقاه على أصل الخلقة»[4].

قال الماوردي: «في طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه، والقهر لمن عاندوه، ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوي، ورادع ملي، وقد أفصح المتنبي بذلك في قوله:

والظلم من شيم النفوس فإن
تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء: إما عقل زاجر، أو دين حاجر، أو سلطان رادع، أو عجز صاد»[5].

---

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، لابن سعدي، ص: ٤٢٦.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٤) إغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ١٣٦ – ١٣٧.

(٥) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص: ١٣٤.

وبما أن الظلم طبيعة إنسانية، فقد كثرت نصوص الكتاب والسُّنَّة الذامة له وأهله، وبيان مساوئه، وتعداد عواقبه وآثاره.

وفي مقابل ذلك كثرت نصوص الكتاب والسُّنَّة في الحثّ على العدل، ومدح أهله، وتعداد محاسنه.

وهذه النصوص الكثيرة تدلّ على أمرين:

الأمر الأول: أن كل عمل لا يوافق ما أمر الله به ورسوله فإنه ظلم؛ لأنه خروج وإعراض عن أمر الله ورسوله.

الأمر الثاني: الابتعاد عن الظلم، والتخلّص منه، ومحاربته، والحثّ على إقامة العدل.

فمن ابتعد عن الظلم، واتسم بالعدل؛ كملت إنسانيته، ورفعت درجته، وعلت منزلته، ومن وقع في الظلم وجانب العدل نقصت منزلته، وانسلخ من إنسانيته، **قال الراغب**: «ومن خرج عن تعاطي العدل بالطبع والخُلق والتخلّق والتصنّع والرياء والرغبة والرهبة فقد انسلخ عن الإنسانية»[1].

والله سبحانه قد جعل للعدل المأمور به حداً، فمن تجاوزه كان ظالماً معتدياً، وله من الذم والعقوبة بحسب ظلمه وعدوانه[2].

والخارج عن العدل إلى الظلم مستوجب سخط الله عز وجل بقدر خروجه عنه إلا أن يتغمّده الله تعالى بعفوه[3].

ذم الظلم والتحذير منه:

الظلم خلق ذميم، وذنب جسيم، وأذى عظيم، ووصف لئيم، يحلق الدين، ويحلق الحسنات، ويجلب الويلات والنكبات، ويورث العداوات والمشاحنات، ويثمر الأحقاد والضغائن، ويسبب القطيعة والعقوق، ويحيل

---

(١) الذريعة، للراغب، ص: ٢٥٤.

(٢) إغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ١٣٦- ١٣٧.

(٣) الذريعة، للراغب، ص: ٢٥٢.

حياة الناس إلى جحيم وشقاء، وكدر وبلاء، **قال ابن تيمية:** «وكل شر فهو داخل في الظلم»[1].

وقال ابن القيم: «وأصل كل شر هو الجهل والظلم»[2].

والظلم إنما ينشأ عن ظلمة القلب[3].

وقد ذم الله الظلم والظالمين، وحذّر منهم، وبيّن مساوئهم، وسوء عاقبتهم، ويتجلّى ذلك في الأمور التالية:

الأول: بغضه تعالى لهم وعدم محبته لهم: قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٧﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾[5].

الثاني: خذلانه لهم وعدم نصرته لهم: قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾[7].

الثالث: النهي عن القرب منهم، والركون إليهم، ومجالستهم: قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[8]، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾[9]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧﴾[10]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٥٠﴾[11].

---

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية: ١/ ٩٧.

(٢) إغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ١٣٦– ١٣٧.

(٣) فتح الباري، لابن حجر: ٥/ ١٠٠.

(٤) سورة آل عمران، آية: ٥٧.

(٥) سورة الشورى، آية: ٤٠.

(٦) سورة فاطر، آية: ٣٧.

(٧) سورة الشورى، آية: ٨.

(٨) سورة هود، آية: ١١٣.

(٩) سورة الأنعام، آية: ٦٨.

(١٠) سورة الأعراف، آية: ٤٧.

(١١) سورة الأعراف، آية: ١٥٠.

الرابع: الضلال وعدم الهداية: قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾[2].

الخامس: الخسارة وعدم الفوز والفلاح: قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾[3].

السادس: تحذيرهم وتهديدهم بالعقوبة: قال تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾[4]، وقال تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٥١﴾[5].

السابع: دمارهم وهلاكهم وخراب قراهم وبيوتهم ودولهم: قال تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢﴾[6]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥﴾[7].

الثامن: توعدهم بالويل والثبور: قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾[8]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤﴾[9].

التاسع: وعدهم بالنار، وبئس القرار، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٨.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٤٤.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٢١.

(٤) سورة الشعراء، آية: ٢٢٧.

(٥) سورة الزمر، آية: ٥١.

(٦) سورة النمل، آية: ٥٢.

(٧) سورة الحج، آية: ٤٥.

(٨) سورة الزخرف، آية : ٦٥.

(٩) سورة الأنبياء، آية: ١٤.

﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾[2].

العاشر: شناعة موتهم وشدة نزع أرواحهم وعذابهم في قبورهم: قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾[4].

الحادي عشر أعد الله لهم عذاباً مهيناً أليماً: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾[6]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[7].

الثاني عشر: الندم يوم القيامة، وعض الأصابع: قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾[8]، وقال تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ

---

(١) سورة الكهف، آية: ٢٩.

(٢) سورة الحشر، آية: ١٧.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٩٣.

(٤) سورة النحل، آية: ٢٨.

(٥) سورة إبراهيم، آية: ٢٢.

(٦) سورة الشورى، آية: ٢١.

(٧) سورة الشورى، آية: ٤٢.

(٨) سورة الشورى، آية: ٤٤.

﴿أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧﴾[2].

الثالث عشر: لعنهم الله وغضب عليهم: قال تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾[4].

الرابع عشر: إهلاك الله لهم: قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾[5]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾[6]، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾[7].

الخامس عشر: شدة حسرتهم وفزعهم ورعبهم يوم القيامة: قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ٤٧﴾[8]، وقال تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾[9].

(١) سورة الأنبياء، آية: ٩٧.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٢٧.

(٣) سورة هود، آية: ١٨.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٤٤.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٣١.

(٦) سورة العنكبوت، آية: ٣١.

(٧) سورة العنكبوت، آية: ٤٠.

(٨) سورة الزمر، آية: ٤٧.

(٩) سورة الشورى، آية: ٢٢.

السادس عشر: شناعة وسوء عاقبتهم: قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾[3].

أثر الظلم في رد الحق:

سبق أن بيّنا أن الظلم على نوعين:

النوع الأول: الظلم الأكبر، وهو المتعلّق بحق الله، أو بحق رسله، أو بحق كتبه.

النوع الثاني: الظلم الأصغر، وهو المتعلّق بحقوق الخلق.

فالظلم الأكبر المتعلّق بحق الله، أو حق رسله أو بحق كتبه المنزّلة؛ هو الذي رد الحق به، ولم ينقد له.

وقد دل على ذلك نصوص كثيرة؛ منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[4] لا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئاً لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنيا[5] ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فعبدت غير الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ الضارين لأنفسهم الواضعين للعبادة في غير موضعها[6].

---

(١) سورة يونس، آية: ٣٩.

(٢) سورة القصص، آية: ٤٠.

(٣) سورة النمل، آية: ١٤.

(٤) سورة يونس، آية: ١٠٦.

(٥) جامع البيان، لابن جرير: ١٥/ ٢١٨ - ٢١٩.

(٦) معالم التنزيل، للبغوي: ٤/ ١٥٥.

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾[١] يعني وأنتم واضعو العبادة في غير موضعها، لأن العبادة لا تنبغي إلا لله عز وجل، وعبدتم أنتم العجل ظلماً منكم، ووضعاً للعبادة في غير موضعها[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾[٣] لا أحد أظلم منهم لأنفسهم؛ لأنهم افتروا على الله كذباً، فأضافوا كلامه إلى غيره، وزعموا أن له شريكاً وولداً، وقالوا للأصنام: هؤلاء شفعاؤنا عند الله[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾[٥] «لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ممن افترى على الله كذباً وتقوّل على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا»[٦].

٥- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[٧] فـ«لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفي الباطل كذب على الله، وكذب رسول الله، قالوا الباطل، وردوا الحق»[٨].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٥١.

(٢) جامع البيان، لابن جرير: ٢/ ٦٩.

(٣) سورة هود، آية: ١٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ١٨.

(٥) سورة يونس، آية: ١٧.

(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٢٢٢.

(٧) سورة الزمر، آية: ٣٢.

(٨) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٧/ ٨٨.

وقد اختلف أهل التأويل في الذي جاء بالصدق وصدّق به، ورجّح ابن جرير أنه: «كل من دعا إلى توحيد الله، وتصديق رسله، والعمل بما ابتعث به رسوله من بين رسل الله وأتباعه والمؤمنين به، وأن يقال: الصدق هو القرآن، وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدق به: المؤمنون بالقرآن، من جميع خلق الله كائناً من كان من نبي الله وأتباعه»[1].

قال ابن تيمية: «والله قد ذم الكاذب والمكذّب بالحق؛ لقوله في غير آية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾[2]، وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾[3]، ولهذا لما كان مما وصف الله به الأنبياء الذين هم أحق الناس بهذه الصفة: أن كلاً منهم يجيء بالصدق فلا يكذب، فكل منهم صادق في نفسه مصدق لغيره...

وأنت تجد كثيراً من المنتسبين إلى علم ودين لا يكذبون فيما يقولونه، بل لايقولون إلا الصدق، لكن لا يقبلون ما يخبر به غيرهم من الصدق، بل يحملهم الهوى والجهل على تكذيب غيرهم وإن كان صادقاً إما تكذيب نظيره وإما تكذيب من ليس من طائفته.

ونفس تكذيب الصادق هو من الكذب، ولهذا قرنه بالكاذب على الله، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾[4]، فكلاهما كاذب، هذا كاذب فيما يخبر به عن الله، وهذا كاذب فيما يخبر به عن المخبر عن الله»[5].

---

(١) جامع البيان، لابن جرير: ٢١/ ٢٩١.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٨.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٢١.

(٤) سورة الزمر، آية: ٣٢.

(٥) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية: ٧/ ١٩٢.

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾[١]، فلا أظلم ممن كذّب بما بعث الله به رسوله محمداً ﷺ من توحيده، والبراءة من الآلهة والأنداد لما جاءه هذا الحق من عند الله[٢].

والحق الذي كذّب به الظالم هو الحق جاء: «على يد رسوله محمد ﷺ»[٣].

٧- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾[٤]، فـ«لا أعظم ظلماً، ولا أكبر جرماً، من عبد ذُكِّر بآيات الله، وبُيّن له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخوف ورهب ورغب، فأعرض عنها، فلم يتذكّر بما ذكر به، ولم يرجع عما كان عليه... فهذا أعظم ظلماً من المعرض الذي لم تأته آيات الله ولم يذكّر بها، وإن كان ظالماً فإنه أخفّ ظلماً من هذا، لكون العاصي على بصيرة وعلم أعظم ممن ليس كذلك»[٥].

٨- قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[٦] أي ما يكذب بها ويبخس حقها ويردّها إلا الظالمون، أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه[٧].

٩- قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[٨] أي لم ينتفع بما جاء به

(١) سورة العنكبوت، آية: ٦٨.
(٢) جامع البيان، لابن جرير: ٢٠/ ٦٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، لابن سعدي، ص: ٦٣٧.
(٤) سورة الكهف، آية: ٥٧.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، لابن سعدي، ص: ٤٨١.
(٦) سورة العنكبوت، آية: ٤٩.
(٧) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٦/ ٢٥٩.
(٨) سورة الأنعام، آية: ١٥٧.

الرسول، ولا اتبع ما أرسل به، ولا ترك غيره، بل صدف عن اتباع آيات الله، وصدف الناس، وصدهم عن ذلك[١].

١٠- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[٢] أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله، فقال: إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذّب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر، والثاني مكذّب[٣].

وكذلك من كذّب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه[٤].

وإنما كان هذا أظلم الخلق؛ لأن فيه من الكذب، وتغيير الأديان أصولها، وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله ما هو من أكبر المفاسد.

ويدخل في ذلك، ادعاء النبوة، وأن الله يوحي إليه، وهو كاذب في ذلك، فإنه -مع كذبه على الله، وجرأته على عظمته وسلطانه- يوجب على الخلق أن يتبعوه، ويجاهدهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.

ويدخل في هذه الآية: كل من ادعى النبوة، كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي والمختار، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف[٥].

١١- قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾[٦] حاصل

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٣٣٣.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٩٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٦/ ٢٦٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٢٢٤.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، لابن سعدي، ص: ٢٦٥.

(٦) سورة البقرة، آية: ٥٩.

ما ذكره المفسّرون وما دلّ عليه السياق: أنهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجداً، فدخلوا يزحفون على استاههم من قبل استاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا، فاستهزأوا فقالوا: حنطة في شعيرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة»[1].

١٢- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾[2] من أشد ظلماً وعدواناً ممن اختلق على الله الكذب، وهو قول قائلهم للنبي ﷺ: هو ساحر! ولما جاء به سحر! فكذلك افتراؤه على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام! يقول: إذا دعي إلى الدخول في الإسلام، قال على الله الكذب، وافترى عليه الباطل[3].

وجوب التوبة من الظلم:

تجب التوبة من الظلم بجميع أنواعه، ويحرم التمادي فيه، والإصرار عليه.

والتوبة من الظلم المتعلّق بترك الحق وعدم قبوله يسهل على من كانت درجة انحرافه قليلة، وقد يصعب على من كانت نسبة انحرافه عن الحق كبيرة، **قال الراغب**: لما كان الظلم ترك الحق الجاري مجرى النقطة من الدائرة صار العدول عنها إما قريباً وإما بعيداً، فمن كان عنه (عن الحق) أبعد كان الرجوع إليه أصعب، ولذلك قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾[4] تنبيهاً إلى أن الشيطان متى أمعن بهم في البُعد من الحق؛ صعب عليهم حينئذ الاهتداء.

وعلى هذا فمن كان إليه (أي إلى الحق) أقرب كان الرجوع إليه أسهل،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ١٧٧.

(٢) سورة الصف، آية: ٧.

(٣) جامع البيان، لابن جرير: ٢٣/ ٣٥٩.

(٤) سورة النساء، آية: ٦٠.

ومن ثمّ فليحذر الظالم المبتدئ من التمادي في ظلمه حتى يعطي لنفسه فرصة الرجوع إلى الحق[1].

وعليه فمن كانت نسبة انحرافه عن الحق صغيرة أو كبيرة قبول الحق، والانقياد له، والتسليم به.

وإذا صدق الإنسان في توبته وجاهد نفسه على ذلك وفقه الله وهداه وأعانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾[2].

وإذا تاب قبل الله توبته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾[4].

وللتوبة الصادقة من الذنوب جميعاً خمسة شروط:

الشرط الأول: الإقلاع عن الذنب.

الشرط الثاني: العزم على عدم العود.

الشرط الثالث: الندم على ما فات؛ فعن ابن مسعود قال: قال رسول ﷺ: «**الندم توبة**»[5].

الشرط الرابع: أن تكون قبل بلوغ الروح الحلقوم وقبل طلوع الشمس من مغربها، قال تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾[6].

---

(١) الذريعة، للراغب، ص: ٢٥٣.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٦٩.

(٣) سورة النساء، آية: ١١٠.

(٤) سورة المائدة، آية: ٣٩.

(٥) رواه ابن ماجه: ٢/ ١٤٢٠، وحسّنه ابن حجر، ينظر: «فتح الباري» ١٣/ ٤٧١.

(٦) سورة النساء، آية: ١٨.

وعن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**»[1].

الشرط الخامس: إذا كان الظلم متعلقاً بحق إنسان أعاده إليه، أو تحلله منه، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطُرحت عليه**»[2].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.



المبحث السادس

المداهنة

تعريف المداهنة:

المداهنة لغة: المداهنة: المصانعة واللين، **قال ابن فارس**: «الدال والهاء والنون» أصل واحد يدل على لين وسهولة وقلة.. **والمداهنة**: المصانعة، **داهنت** الرجل، إذا واربته وأظهرت له خلاف ما تضمر له، وأدهنت إدهاناً، **غششت**، ومنه قوله جل ثناؤه: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾[1] [2].

المداهنة اصطلاحاً: قال الجرجاني: «المداهنة: هي أن ترى منكراً وتقدر على دفعه ولم تدفعه؛ حفظاً لجانب مرتكبه، أو جانب غيره، أو لقلّة مبالاة في الدين»[3].

وقال القاضي عياض: «المداهنة: إنما هي إعطاء بالدين، ومصانعة بالكذب، والتزيين للقبيح، وتصويب الباطل للوصول إلى أسباب الدنيا وصلاحها»[4].

وقال عبد الكريم يونس الخطيب: «المداهن الذي يصانع في الأمور، ويلقاها بغير رأيه فيها، طلباً للسلامة، وتجنباً لما قد تجرّه إليه المكاشفة من متاعب ومكاره»[5].

الفرق بين المداراة والمداهنة:

قال القرطبي في الفرق بينهما: «أن **المداراة**: بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين، أو هما معاً، وهي مباحة، وربما استحبت.

---

(١) سورة القلم، آية: ٩.

(٢) مقاييس اللغة، لابن فارس: ٢/ ٣٠٨، وينظر: لسان العرب، لابن منظور: ١٣/ ١٦٢.

(٣) التعريفات، للجرجاني، ص: ٢٠٧.

(٤) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض: ٨/ ٢٧٣.

(٥) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب: ١٤/ ٧٣٨.

والمداهنة: ترك الدين لصلاح الدنيا»[١].

وقال الغزالي: «الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء؛ فإن أغضيت لسلامة دينك، ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مدار، وإن أغضيت لحظ نفسك، واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنت مداهن»[٢].

وقال ابن القيم: «المداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم.

والفرق بينهما: أن المداراة تلطف الإنسان بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل.

وأما المداهن، فهو الذي يتلطف مع صاحبه ليقره على ذنب أو يتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق. وقد ضُرب لذلك مثل من أروع الأمثلة وذلك كرجل أصابته قرحة في قدمه فجاء الطبيب الرفيق فأخذ يعالج هذه القرحة ويخرج ما فيها ثم إذا به يضع الدواء الذي ينبت اللحم ثم يتعاهدها ثم يضع عليها المراهم حتى ينشفها ثم يضع عليها خرقة، فلا يزال يتابع هذا وهذا حتى نشفت رطوبتها.

وأما المداهن فهو الذي أتى إلى صاحب هذه القرحة وقال: لا بأس عليك إنما هي شيء يسير، واسترها عن عيون الناس بخرقة وتلهى عنها، فلا يزال يزداد شرها وتكثر عفونتها حتى يهلك»[٣].

وقال ابن بطال: «المداراة من أخلاق المؤمنين... وقد ظن من لم يمعن النظر أن المداراة هي المداهنة، وذلك غلط؛ لأن المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة.

والفرق بينهما بيّن، وذلك أن المداهنة اشتق اسمها من الدهان الذى يظهر على ظواهر الأشياء ويستر بواطنها.

وفسرها العلماء فقالوا: المداهنة هي أن يلقى الفاسق المظهر فسقه فيؤالفه

---

(١) فتح الباري، لابن حجر: ١٠/ ٤٥٤.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٢/ ١٨٢.

(٣) الروح، لابن القيم، ص: ٢٣١.

ويؤاكله، ويشاربه، ويرى أفعاله المنكرة ويريه الرضا بها ولا ينكرها عليه ولو بقلبه، وهو أضعف الإيمان، فهذه المداهنة التي برأ الله عز وجل منها نبيه عليه السلام بقوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾[١].

والمداراة هي الرفق بالجاهل الذى يستتر بالمعاصي ولا يجاهر بالكبائر، والمعاطفة في رد أهل الباطل إلى مراد الله بلين ولطف حتى يرجعوا عما هم عليه»[٢].

وقال ابن حجر: وضابط المداراة: أن لا يكون فيها قدح في الدين.

والمداهنة المذمومة: أن يكون فيها تزيين القبيح، وتصويب الباطل، ونحو ذلك[٣].

وقال ابن حبان: «والمداراة التي تكون صدقة للمداري هو تخلّق الإنسان بالأشياء المستحسنة مع من يدفع إلى عشرته، ما لم يشبها معصية الله.

والمداهنة هي استعمال المرء الخصال التي تستحسن منه في العشرة، وقد يشوبه ما يكره الله تعالى»[٤].

بواعث المداهنة وأسبابها:

١- حب الشهرة والتصدّر وكسب ثقة الجماهير وكثرة المتابعين.
٢- التقرّب والتزلّف من ذوي الوجاهة والمال والسلطان.
٣- الولاء للدولة أو للمذهب أو للحزب أو للقبيلة أو للشيخ، أو... إلخ.
٤- ضعف الإيمان، وسوء التربية، وقلة المروءة.
٥- الخوف من مرهوب أو الطمع في مرغوب.
٦- مسايرة الواقع، والاستلام لضغوطاته.

---

(١) سورة القلم، آية: ٩.

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال: ١٠/ ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٣) فتح الباري، لابن حجر: ١٣/ ٥٢ - ٥٣.

(٤) الآداب الشرعية، لابن مفلح: ٣/ ٤٦٩.

٧- الانهزامية النفسية.

٨- الاستسلام للهوى والنفس والشيطان.

صور المداهنة:

أولاً: المداهنة بالقول: وذلك بالثناء على أهل الباطل، وذكر محاسن أهله، والتهوين من أخطائهم، بل لربما التبرير لأفعالهم الشنيعة، وما أشبه ذلك.

ثانياً: المداهنة بالفعل: وذلك بحضور مجالس أهل الباطل، وغشيان منتدياتهم دون إنكار عليهم، أو التشبه بهم في الملبس والمأكل والمشرب والعادات، وما أشبه ذلك.

ثالثاً: المداهنة بالسكوت: وذلك بالصمت والإغضاء عن أخطاء أهل الباطل، وعدم بيان عوارها وخبثها وشرها، وما أشبه ذلك.

ذم المداهنة:

المداهنة صفة مقيتة، وخصلة ذميمة، وذلك من وجوه عدة:

١- **أنها سمة من سمات الجبناء الضعفاء في الغالب**، بخلاف الأقوياء الشجعان.

٢- **أنها صفة من صفات المنافقين**؛ كما نص على ذلك ابن القيم[١].

٣- **أنها صفة من صفات المغضوب عليهم**: قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾[٢]، **قال ابن تيمية**: «فوصف المغضوب عليهم بأنهم يكتمون العلم: تارة بخلاً به، وتارة اعتياضاً عن إظهاره بالدنيا، وتارة خوفاً في أن يحتج عليهم بما أظهروه منه. وهذا قد يبتلى به طوائف من المنتسبين إلى العلم؛ فإنهم تارة يكتمون العلم بخلاً به، وكراهة لأن

---

(١) الروح، لابن القيم، ص: ٢٣١.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

ينال غيرهم من الفضل ما نالوه، وتارة اعتياضاً عنه برئاسة أو مال، فيخاف من إظهاره انتقاص رئاسته أو نقص ماله، وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة، أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة، فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفه وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل»[1]. وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسالكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئا[2].

٤- **أنها كبيرة من كبائر الذنوب**؛ كما نص على ذلك ابن حجر[3].

٥- **أنها سمة من سمات أهل الضلال: قال ابن تيمية** وهو يتحدث عن أهل المنطق: «يصير غالب هؤلاء مداهنين لعوامهم، مضلين لهم عن سبيل الله، أو يصيرون منافقين زنادقة لا يقرون بحق ولا بباطل، بل يتركون الحق كما تركوا الباطل، فأذكياء طوائف الضلال إما مضللون مداهنون، وإما زنادقة منافقون لا يكاد يخلو أحد منهم عن هذين»[4].

٦- **أنها تتناقض مع فريضة الحسبة**، وتتعارض مع نصوص الكتاب والسُّنَّة الآمرة ببيان الحق، والمحذّرة من السكوت عن المنكر.

٧- **أنها سبب لانتشار الشرور** والفسق والفجور في الأرض.

٨- **أنها وسيلة لتزيين القبيح**، وتصويب الباطل.

٩- **أنها مدخل من مداخل الشيطان على الإنسان**، ذلك أن الشيطان في بداية الأمر يسهّل على الإنسان شأنها، فيبدأ يداهن في أمر صغير، ثم أمر أكبر، وهكذا حتى تؤدي به إلى الخروج من الدين.

١٠- **أنها تضم بين جناحيها الكذب، وخلف الوعد**: أما الكذب فلأن المداهن

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن القيم: ١/ ٨٤ - ٨٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٢/ ١٥٩.

(٣) الزواجر، لابن حجر: ٢/ ٢١١.

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٩/ ٢٤.

يصف الرجل بغير ما يعرفه عنه، ومن دخل الكذب من باب، سهل عليه أن يأتيه من أبواب متفرقة. وأما إخلاف الوعد فلأن المداهن يقصد إلى إرضاء صاحبه في الحال فلا يبالي أن يعده بشيء وهو عازم على أن لا يصدق في وعده[1].

١١- أن المداهن أخبث حالاً من أصحاب الكبائر[2]: قال بعض السلف: «المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أخرس»[3].

قال ابن القيم: «وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأمور المحبوبة لله، وأكثر الدينين لا يعبؤون منها، إلا بما شاركهم فيه عموم الناس، وأما الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله وكتابه ودينه، فهذه الواجبات لا يخطرن ببالهم، فضلاً عن أن يريدوا فعلها، فضلاً عن أن يفعلوها. وأقل الناس ديناً، وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات، وإن زهد في الدنيا جميعها. وقل أن يرى منهم من يحمر وجهه، ويتمعّر في الله، ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه؛ وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء»[4].

وقال ابن القيم أيضاً: «وقد غرّ إبليس أكثر الخلق بأن حسّن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع، وعطّلوا هذه العبوديات، فلم يحدّثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس ديناً؛ فإن الدين هو القيام لله بما أمر به، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالاً عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي؛ فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجهاً ذكرها شيخنا رحمه الله في بعض تصانيفه؛ ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ وبما كان عليه هو وأصحابه رأى أن أكثر من يُشار إليهم بالدين هم أقل الناس ديناً، والله المستعان، وأي

---

(١) مفهوم الحكمة في الدعوة، لصالح بن حميد، ص: ٥٤ – ٥٥.

(٢) عدا الشرك.

(٣) موارد الظمآن، لعبد العزيز السلمان: ٣٢/ ١٤٩.

(٤) مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ١٤٦ – ١٤٧.

دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك وحدوده تُضاع ودينه يُترك وسنة رسول الله ﷺ يُرغب عنها وهو بارد القلب ساكت اللسان؟ وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟... وهؤلاء -مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم- قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب؛ فإنه القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل»[١].

وقال ابن رجب: «فمن شهد الخطيئة فكرهها بقلبه كان كمن لم يشهدها إذا عجز عن إنكارها بلسانه ويده، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها وقدر على إنكارها ولم ينكرها؛ لأن الرضا بالخطايا من أقبح المحرمات»[٢].

عواقب المداهنة وآثارها:

للمداهنة عواقب وخيمة، وآثار سيئة، على المداهن، وعلى المجتمع، وعلى الحق وأهله.

أولاً: على المداهن نفسه:

١- سخط الله: ذلك أنه التمس رضا الناس بسخط الله، وصار الخلق في نفسه أجلّ من الله؛ و «**من التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**»[٣].

٢- اللعن والطرد من رحمة الله: قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[٤]، فالمداهن القادر على تغيير المنكر ولم ينه عنه تحل عليه لعنة الله وغضبه.

---

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٢/ ١٢٠ - ١٢١.

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ٢/ ٢٤٥.

(٣) رواه الترمذي: ٤/ ٦١٠، وصححه الألباني.

(٤) سورة المائدة، آية: ٧٨.

٣- الذل والهوان؛ لأن المداهن طلب العز بمداهنته للباطل، فكما أنه هان عليه أمر الله أهانه الله وأذلّـه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧﴾[1].

قال بعض السلف: «من ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ مخافة المخلوقين، نزعت منه الطاعة؛ فلو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخف بحقه»[2].

٤- التعرض لعقوبة الله.

٥- حكمه حكم فاعل المنكر: قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝١٤٠﴾[3]، فسوّت الآية في الحكم بين فاعل المنكر والساكت عنه.

ثانياً: على المجتمع:

الهلاك والعقوبات العامة: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم**» قالت: قلت يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: «**يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم**»[4].

فإذا كثر الفساد في الأرض وسكت أهل الحق عن إنكاره عمّت الأمة عقوبة جماعية.

فعن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟

قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»[5].

---

(١) سورة التوبة، آية: ٦٧.

(٢) صفة الصفوة، : ١/ ٣٩٨.

(٣) سورة النساء، آية: ١٤٠.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾[1].

قال الشنقيطي: «والتحقيق في معناها: أن المراد بتلك الفتنة التي تعمّ الظالم وغيره هي أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه عمّهم الله بالعذاب، صالحهم وطالحهم»[2].

وقد يقول قائل: ما ذنب من لم يعص الله ويعمّه العقاب؟

أجاب عن ذلك ابن الجوزي فقال: «فإن قيل: فما ذنب من لم يظلم؟ فالجواب: أنه بموافقته للأشرار، أو بسكوته عن الإنكار، أو بتركه للفرار؛ استحق العقوبة»[3].

ثالثاً: على الحق وأهله:

١- تحريف الحق وتبديله:

قال ابن القيم: «ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير حتى تناسخ واضمحل، ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء، بل ركّبوا ديناً بين دين المسيح ودين الفلاسفة عُبّاد الأصنام، وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم؛ حتى يدخلوهم في النصرانية، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسّدة إلى عبادة الصور التي لا ظل لها»[4].

٢- الصد عن الحق:

قال ابن القيم: «شر على السالكين إلى الله من قطاع الطريق، بل هو من قطاع طريق السالكين حقيقة»[5].

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢٥.

(٢) أضواء البيان، للشنقيطي: ١/ ٤٦١ - ٤٦٢.

(٣) زاد المسير، لابن الجوزي: ٢/ ٢٠٢.

(٤) إغاثة اللهفان، لابن القيم: ٢/ ٢٧٠.

(٥) مدارج السالكين، لابن القيم: ٣/ ٤٥.

٣- **تقوية أهل الباطل:**

قال ابن باز: «ولو سكت أهل الحق عن بيانه لاستمر المخطئون على أخطائهم، وقلّدهم غيرهم في ذلك»[(١)].

٤- ضعف الثقة بالحق وأهله.

٥- طعن الكفار في الدين، وتشكيكهم فيه، وبث الشُّبه والأباطيل حوله.

٦- استعلاء أهل الشر والفساد في الأرض.

٩- الجرأة على المعاصي والمنكرات، وعدم الاكتراث بها.

١٠- فشو الجهل، واندراس العلم.

١١- الوزر والإثم.

وجوب بيان الحق:

يجب على أهل الحق بيانه للناس، وإقامة الحجة على أهل الباطل إبراء للذمة، قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥ ﴾[(٢)].

ويجب على من رأى منكراً أن ينكره، ويحرم عليه السكوت إذا كان قادراً؛ فعن أبي سعيد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[(٣)].

وقد نص العلماء على وجوب بيان الحق، ووضحوا المنهجية في ذلك، قال ابن الجوزي: «وما زال العلماء يبيّن كل واحد منهم غلط صاحبه قصداً لبيان الحق لا لإظهار عيب الغالط، ولا اعتبار بقول جاهل يقول كيف يرد على فلان الزاهد المتبرك به؛ لأن الانقياد إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة، لا إلى

---

(١) مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز: ٣/ ٧٢.

(٢) سورة النساء، آية: ١٦٥.

(٣) رواه مسلم.

الأشخاص، وقد يكون الرجل من الأولياء وأهل الجنة وله غلطات، فلا تمنع منزلته بيان زلله»[(١)].

وقال ابن تيمية: «ولهذا يسوغ بل يجب أن نبيّن الحق الذي يجب اتباعه وإن كان فيه بيان خطأ من أخطأ من العلماء والأمراء»[(٢)].

وقال عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: «فما زال الصحابة ومن بعدهم ينكرون على من خالف وأخطأ كائناً من كان، ولو كان أعلم الناس وأتقاهم، وإذا كان الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق، وأمرنا باتباعه وترك ما خالفه، فمن تمام ذلك أن من خالفه من العلماء مخطئ ينبّه على خطئه، ويُنكر عليه»[(٣)].

وإذا بان الحق وجب قبوله، قال ابن القيم: «فعلى المسلم أن يتبع هدي النبي ﷺ في قبول الحق ممن جاء به من ولي وعدو وحبيب وبغيض وبر وفاجر، ويرد الباطل على من قاله كائناً من كان»[(٤)].

وينبغي أن يعلم أنه لا مصلحة -إطلاقاً- في مداهنة أهل الباطل: قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[(٥)]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[(٦)]، وقال تعالى: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾**﴾[(٧)].

---

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي: ١/ ١٥٢.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٩/ ١٢٣.

(٣) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، لعلماء نجد الأعلام، تحقيق عبد الرحمن بن قاسم: ٤/ ٨ – ٩.

(٤) إعلام الموقعين، لابن القيم: ١/ ٨٢.

(٥) سورة البقرة، آية: ١٢٠.

(٦) سورة يوسف، آية: ١٠٣.

(٧) سورة الأنعام، آية: ١١٦.

وسائل الوقاية من المداهنة:

١ - البعد عن بواعث المداهنة وأسبابها.

٢- الحرص على وسائل تقوية الإيمان وزيادته.

٣- سؤال الله الهداية، والسير على الصراط المستقيم، والثبات على الحق.

٤- الإكثار من الطاعات والقربات واجتناب المحرمات والمنهيات.

٥- تعظيم نصوص الكتاب والسُّنَّة، والحذر من القول على الله بلا علم.

٦- تعظيم شأن الفتوى واستشعار أنها توقيع عن الله.

٧- الرجوع إلى أهل العلم المشهود لهم بالفضل.

٨- مصاحبة الدعاة الصادقين وتكثير سوادهم.

٩- إحياء شعيرة الحسبة، وبذل النصيحة، وعدم السكوت على الباطل..

١٠- النظر والتأمّل في سير الأنبياء وكيف كانت دعوتهم لأقوامهم، وفي مقدمتهم النبي الخاتم محمد ﷺ.

١١- قراءة تراجم الناصحين المحتسبين من الصحابة والتابعين والعلماء والمصلحين.

١٢- الحرص على مرضاة الله وحده، والبعد عن مرضاة الخلق.

١٣- محاسبة النفس، وتذكيرها بعواقب المداهنة وآثارها السيئة.

المبحث السابع

التعصّب

تعريف التعصّب:

التعصّب لغة: التجمّع والارتباط والنُّصرة: قال ابن فارس: «العين والصاد والباء» أصل صحيح واحد يدل على ربط شيء بشيء، مستطيلاً أو مستديراً»[(١)].

والتعصّب: من العصبية، والعصبية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته، والتألّب معهم على من يناويهم، ظالمين كانوا أو مظلومين.

وقد تعصّبوا عليهم إذا تجمّعوا، فإذا تجمّعوا على فريق آخر قيل: تعصّبوا.

والعصبية والتعصب: المحاماة والمدافعة.

وتعصبنا له ومعه: نصرناه.

والعصبة: الأقارب من جهة الأب؛ لأنهم يعصبونه، ويعتصب بهم أي يحيطون به، ويشتد بهم[(٢)].

والعصبة من الرجال: ما بين العشرة إلى الأربعين[(٣)].

التعصّب اصطلاحاً: تعددت تعريفات العلماء للتعصّب تبعاً لتعدّد أشكال التعصّب، ومن هذه التعريفات ما يلي:

١- الميل مع الهوى لأجل نُصرة المذهب، ومعاملة الإمام الآخر ومقلديه بما يحط عنهم[(٤)].

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس: ٤/ ٣٣٦.

(٢) لسان العرب، لابن منظور: ١/ ٦٠٦، والمعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة: ٢/ ٦٠٤، ومعجم لغة الفقهاء، لمحمد رواس، وحامد صادق، ص: ٣١٣.

(٣) الصحاح تاج اللغة، للجوهري: ١/ ١٨٢.

(٤) القول السديد في بعض مسائل الاجتهاد والتقليد، لابن الرومي الحنفي، ص: ٤٧ - ٤٨.

٢- مناصرة المحبوب في حق أو باطل[١].

٣- عدم قبول الحق عند ظهور دليله[٢].

٤- نصرة قومه أو جماعته أو من يؤمن بمبادئهم سواء كانوا محقين أم مبطلين، وسواء كانوا ظالمين أو مظلومين[٣].

و«المتعصب من تكون عقيدته مانعة من قبول الحق عند ظهور الدليل»[٤].

أشكال التعصب:

التعصب له أشكال متعددة، ومنها:

١- التعصب القبلي.
٢- التعصب القومي.
٣- التعصب الحزبي.
٤- التعصب الديني.
٥- التعصب المذهبي.
٦- التعصب الطائفي.
٧- التعصب الطبقي.
٨- التعصب الرياضي.
٩- التعصب للوطن والجنسية.
١٠- التعصب للعلماء والآراء.

وما أشبه ذلك من أشكال التعصب.

---

(١) معجم لغة الفقهاء، لمحمد رواس قلعجي وحامد صادق قنيبي، ص: ٣١٣.

(٢) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، لعبد النبي الأحمد: ١/ ٢١٨.

(٣) الحوار وآدابه في الإسلام، لعبد الله المشوخي، ص: ٩٩.

(٤) كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، لعبد العزيز الحنفي: ٣/ ٢٣٨.

أسباب التعصب:

لكل شكل من أشكال التعصب أسباب، وسوف نتكلم هنا عن أسباب التعصب الديني، وللتعصب الديني أسباب كثيرة، وممن ذكر ذلك: الشوكاني[1]، ومنها هذه الأسباب:

أولاً: النشوء في بلد متمذهب بمذهب معين: وهو أكثرها وقوعاً وأشدّها بلاء أن ينشأ المرء في بلد من البلدان التي قد تمذهب أهلها بمذهب معين، واقتدوا بعالم مخصوص.

فهؤلاء الذين ألفوا المذاهب قد صاروا يعتقدون أنها هي الشريعة، وأن ما خرج عنها خارج عن الدين، مباين لسبيل المؤمنين: ﴿**كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ۝٥٣﴾[2]، فأهل هذا المذهب يعتقدون أن الحق بأيديهم وأن غيرهم على الخطأ والضلال والبدعة، وأهل المذهب الآخر يقابلونهم بمثل ذلك.

ثانياً: الحرص على الشرف والمال: فبهما حرَّف أهل الكتاب كتب الله المنزّلة على رسله، وكتموا ما جاءهم فيها من البيّنات والهُدى، كما وقع من أحبار اليهود.

وبسبب الحرص على الشرف والمال بقى من بقى على الكفر من العرب وغيرهم بعد قيام الحجة عليهم وظهور الحق لهم وبه نافق من نافق.

وبسبب الحرص على الشرف والمال وقع في الإسلام من أهل العلم عجائب مودعة في بطون كتب التاريخ.

ثالثاً: الجدال والمراء وحب الظهور: وذلك بأن يكون للإنسان بصيرة وحسن إدراك، ومعرفة بالحق، ورغوب إليه؛ فيخطئ في المناظرة ويحمله

---

(١) أدب الطلب، للشوكاني، ص: ٤٠ – ١١٦ بتصرف وحذف واختصار.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٥٣.

الهوى ومحبة الغلبة، وطلب الظهور على التصميم على مقاله، وتصحيح خطأه، وتقويم معوجه بالجدال والمراء.

رابعاً: القرابة والتعصب للأجداد: وذلك بأن يكون بعض أقارب المرء قد قال بقول ومال إلى رأي؛ فيأتي هذا الذي جاء بعده فيحمله حب القرابة على الذهاب إلى ذلك المذهب والقول بذلك القول، وإن كان يعلم أنه خطأ.

خامساً: صعوبة الرجوع إلى الحق لقوله بخلافه: وذلك بأن يكون الإنسان قد قال بقول في مسألة ما، واشتهر عنه ذلك فإنه قد يصعب عليه الرجوع عنه إلى ما يخالفه وإن علم أنه الحق، وتبين له فساد ما قاله.

سادساً: كون المنافس المتكلم بالحق صغير السن أو الشأن: فتحمله حمية الجاهلية والعصبية الشيطانية على التمسك بالباطل أنفة من الرجوع إلى قول من هو أصغر منه سناً أو أقل منه علماً أو أخفى شهرة؛ ظناً منه أن في ذلك عليه ما يحط منه، وينقص ما هو فيه.

سابعاً: الاستناد إلى قواعد ظنية لا مستند لها إلا محض الرأي.

ثامناً: عدم الموضوعية في عرض حجج المخالفين: بحيث يعرض أدلة المسائل بطريقة انتقائية، فيبالغ في إيراد أدلة مذهبه ويطيل الكلام عليها، ويصرح تارة بأنها أدلة، وتارة بأنها حجج، وتارة بأنها صحيحة، وإذا ما جاء إلى عرض أدلة المخالفين طفف لخصمه المخالف، وأورد أدلته بصيغة التعريض، وعنونها بلفظ الشبه، وما أشبه ذلك.

تاسعاً: التباس ما هو من الرأي البحت بشيء من العلوم التي هي مواد الاجتهاد: وهذا يقع كثيراً في أصول الفقه، فإنه قد اختلط فيها المعروف بالمنكر، والصحيح بالفاسد، والجيد بالرديء، فربما يتكلم على مسائل من مسائل الرأي ويحررها ويقررها، وليست منه في شيء، ولا تعلق لها به بوجه، فيأتي الطالب لهذا العلم إلى تلك المسائل، فيعتقد أنها منه.

عاشراً: تقليد المتعصبين من علماء الجرح والتعديل: فإن الموافقة في المذهب حاملة على ترك التعرض لموجبات الجرح، وكتم الأسباب المقتضية لذلك، فإن وقع التعرض لشيء منها نادراً أكثر من التأويلات والمراوغات والتعسفات الموجبة لدفع كون ذلك الخارج خارجاً.

وإن كان الكلام على أحوال المخالفات كان الأمر على العكس من ذلك.

الحادي عشر: المنافسة بين المتقاربين في الفضائل أو في الرئاسة الدينية أو الدنيوية: فإنه إذا نفخ الشيطان في أنفهما وترقت المنافسة بلغت إلى حد يحمل كل واحد منهما على أن يرد ما جاء به الآخر إذا تمكن من ذلك وإن كان صحيحا جاريا على منهج الصواب.

الثاني عشر: المبالغة في التعصب للحق والنظرة الدونية للمخالفين له: **قال الغزالي**: «وأكثر الجهالات إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق أظهروا الحق في معرض التحري والادلاء، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والإزراء، فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة، ورسخت في نفوسهم الاعتقادات الباطلة، وعسر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها... ولولا استيلاء الشيطان بواسطة العناد والتعصب للأهواء لما وجد مثل هذا الاعتقاد مستقرا في قلب مجنون فضلا عمن له قلب عاقل»[1].

وقال أيضاً: «وهو من آفات علماء السوء، فإنهم يبالغون في التعصب للحق، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه»[2].

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، ص: ١٥.

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي: ١/ ٤٠.

أقسام التعصّب من حيث المدح والذم:

أولاً: التعصّب المحمود: وهو التمسك بالحق المتمثّل بالكتاب والسُّنَّة على فهم سلف الأمة، والعمل به، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.

ثانياً: التعصّب المذموم: وهو المحاماة والمدافعة والمناصرة للباطل، وتسخير كافة الإمكانات في سبيل ذلك، ورفض الحق وردّه ومعاداة أهله.

ذم التعصّب:

التعصّب صفة دنيئة، وهو من دلائل صغر النفس، وزغل العلم، والأنس بالباطل(١).

والتعصب خصلة جاهلية، قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾(٢)، وهذا يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية مذموم في دين الإسلام(٣).

وأكد النبي ﷺ على أن التعصب صفة جاهلية؛ فعن أبي ذر قال: «رأيت عليه برداً، وعلى غلامه برداً، فقلت: لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة، وأعطيته ثوباً آخر، فقال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها، فذكرني إلى النبي ﷺ، فقال لي: «**أسابيت فلاناً**»؟ قلت: نعم، قال: «**أفنلت من أمه؟**» قلت: نعم، قال: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»(٤).

فالتعصب لأمر من الأمور بلا هدى من الله من عمل الجاهلية(٥).

والتعصب خلة منتنة؛ فعن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين، رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا

---

(١) العواصم من القواصم، لابن القيم، ص: ١٧.

(٢) سورة الفتح، آية: ٢٦.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن القيم: ١/ ٢٣٥.

(٤) رواه البخاري.

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١١/ ٢٨.

للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «**ما بال دعوى الجاهلية؟**» قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين، رجلا من الأنصار، فقال: «**دعوها فإنها منتنة**»[1].

قال ابن حجر: «دعوى الجاهلية الاستغاثة عند إرادة الحرب، كانوا يقولون: يا آل فلان، فيجتمعون فينصرون القائل ولو كان ظالماً فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك»[2].

وقال النووي: «قوله ﷺ: «**دعوها فإنها منتنة**» أي قبيحة كريهة مؤذية»[3].

والتعصب إعانة على الظلم؛ فعن عباد بن كثير الشامي عن امرأة يقال لها: فسيلة، قالت: سمعت أبي يقول: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: «**لا، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم**»[4].

فلا يجوز لأحد أن يعين أحداً حتى يعلم الحق، فلا يعاونه بجهل ولا بهوى، بل ينظر في الأمر فإذا تبيّن له الحق أعان المحق منهما على المبطل سواء كان المحق من أصحابه أو أصحاب غيره؛ وسواء كان المبطل من أصحابه أو أصحاب غيره، فيكون المقصود عبادة الله وحده وطاعة رسوله؛ واتباع الحق والقيام بالقسط[5].

والتعصب داء تبرأ النبي ﷺ منه ومن المتسمين به؛ فعن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية**»[6].

---

(١) رواه البخاري ومسلم، واللفظ له.

(٢) فتح الباري، لابن حجر: ٦/ ٥٤٦.

(٣) شرح النووي على مسلم: ١٦/ ١٣٨.

(٤) رواه أحمد: ٢٨/ ١٩٦ - ١٩٧ وحسنه محققو المسند.

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٢٨/ ١٦.

(٦) رواه أبو داود: ٤/ ٣٣٢.

والتعصب داء يصد عن اتباع الحق، ويحمل على كتمانه، ولبسه بالباطل؛ وقد نهى الله عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾[١].

والتعصب ذريعة لارتكاب المحرمات، كالغيبة والنميمة، والسخرية والاستهزاء، والفرقة والتقاطع، وربما إلى الاقتتال، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾[٢]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[٣].

والتعصب يتعارض مع نصوص الكتاب والسُّنَّة الآمرة بالاعتصام والاجتماع، والمحذّرة من الفرقة والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ﴾[٥].

والتعصب يتعارض مع نصوص الكتاب والسُّنَّة الحاثّة على اتباع الدليل، والمحذّرة من اتباع الهوى.

والتعصب يتنافى مع وجوب الانقياد للحق والرجوع إليه عند تبيّنه.

والتعصب يتنافى مع نصوص الكتاب والسُّنَّة الآمرة بقبول الحق، والمحذّرة من الباطل.

والتعصب يتنافى نصوص الكتاب والسُّنَّة الحاثّة على الألفة والرحمة والتعاطف بين المسلمين.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٥.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٩.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٥) سورة آل عمران، آية: ١٠٥.

والتعصب يتنافى مع وسطية الإسلام ويسره وسماحته.

والتعصب سمة من سمات الجهلة، وليس من سيما العلماء، **قال الشافعي**: «الحديث مذهبي فما خالفه فاضربوا به الحائط»[1].

قال الشاطبي معلقاً على قول الشافعي: «وهذا لسان حال الجميع»[2] أي لسان حال جميع أئمة المذاهب المشهورة.

وقد أخرج العلماء «المتعصب بالهوى والمقلّد الأعمى عن زمرة العلماء، وسقوطهما باستكمال من فوقهما الفروض من ورثة الأنبياء، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وكيف يكون من ورثة الرسول ﷺ من يجهد ويكدح في رد ما جاء به إلى قول مقلّده ومتبوعه، ويضيّع ساعات عمره في التعصب والهوى ولا يشعر بتضييعه؟»[3].

و«المتعصب ليس بأهل لأن يؤخذ الحق منه، فإذا لم ينتفع بالعلم ويهتدي بما علف منه فكيف يهتدي به غيره أو يتوصل بما جمعه إلى ما هو الحق؟ فالمصاب بالعمى لا يقود الأعمى، فإن فعل كانت ظلمات بعضها فوق بعض، والمريض لا يداوي من هو مصاب مثل مرضه ولو كان صادقاً فيما يزعمه من اقتدار على المداواة كانت نفسه التي بين جنبيه أحق بذاك منه»[4]. فقِتْلَةٌ جاهلية».

والمتعصب إذا مات متعصباً للباطل، منافحاً عنه، مقاتلاً في سبيه، فقد ساءت خاتمته؛ فعن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قتل تحت راية عمية يدعو عصبية، أو ينصر عصبية؛ فقِتلةٌ جاهلية**»[5].

---

(١) الاعتصام، للشاطبي: ٢/ ٥٠٥.

(٢) الاعتصام، للشاطبي: ٢/ ٥٠٥.

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم: ١/ ٦.

(٤) أدب الطلب، للشوكاني، ص: ١١٥.

(٥) رواه مسلم.

والمتعصب متوعد بالنار في الآخرة؛ فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء؛ مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن**»[١].

فجعل ﷺ الالتفات إلى الأنساب من عبية الجاهلية وتكبرها فكيف يعتبرها المؤمن، ويبني عليها حكما شرعيا؟[٢].

وقد وضع الإسلام قانوناً ثابتاً للحد من التعصب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾[٣]، وقال ﷺ: «**الناس بنو آدم، وآدم من تراب**»[٤].

أثر التعصب في رد الحق:

التعصب للباطل سبب من أسباب رد الحق وعدم قبوله، سواء كان تعصباً للرأي أو للشيخ أو للطائفة أو للقبيلة أو للفرقة أو لغير ذلك.

فالتعصب داء دفع إبليس اللعين إلى رد الحق، ورفض أمر خالقه، والامتناع عن السجود لآدم عليه السلام: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾[٥]، وقال تعالى حاكياً عنه أنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾[٦].

---

(١) رواه أبو داود: ٤/ ٣٣١، وأحمد: ١٤/ ٣٤٩، رقم: ٨٧٣٦، وحسّنه الألباني.

(٢) سبل السلام، للشوكاني: ٢/ ١٨٩.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٤) رواه الترمذي: ٥/ ٧٣٥، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٥) سورة البقرة، آية: ٣٤.

(٦) سورة ص، آية: ٧٦.

وهو الذي دفع قوم نوح عليه السلام إلى العصيان والتمرد على الحق، والاستمرار على الباطل، قال تعالى حاكياً عن نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾[1].

وقال تعالى حاكياً عنهم أنهم قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[2].

وهو الذي دفع قوم عاد إلى عدم الاستجابة لهود عليه السلام، ورفضهم لدعوته، وأمره لهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقد حكى الله عنه أنه قال لهم: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[3]، فرفضوا ذلك، وقالوا: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[4]، وقالوا أيضاً: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾[5].

وهو الذي دفع قوم إبراهيم إلى البقاء على الشرك، والعكوف على عبادة الأصنام، فقد قال لهم إبراهيم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ فردوا عليه بقولهم: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾، فرد عليهم: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ فردوا عليه: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾[6].

---

(١) سورة نوح، آية: ٧، ٨، ٩، ١٠.

(٢) سورة نوح، آية: ٢٣.

(٣) سورة هود، آية: ٥٠.

(٤) سورة هود، آية: ٥٣.

(٥) سورة الأعراف، آية: ٧٠.

(٦) سورة الأنبياء، آية: ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦.

ثم حاول إقناعهم، فقال لهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾، فردوا عليه: ﴿بَلْ وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾[1].

وهو الذي دفع فرعون وقومه إلى عدم الاستجابة لموسى عليه السلام، فقد قالوا له: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾[2].

وهو الذي دفع اليهود إلى رفض الحق الذي مع النصارى، وأيضاً دفع النصارى رفض الحق الذي مع اليهود، قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾[3].

وهو الذي دفع كفار قريش إلى عدم اتباع محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾[4].

وهو الذي دفع الكفار إلى كراهية الحق، ورفضهم له، قال تعالى منكرا عليهم: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾[5]، وذلك: «لما جُبلوا عليه من التعصب، والانحراف عن الصواب، والبعد عن الحق؛ فلذلك كرهوا هذا الحق الواضح الظاهر»[6].

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٧٢، ٧٣، ٧٤.

(٢) سورة يونس، آية: ٧٨.

(٣) سورة البقرة، آية: ١١٣.

(٤) سورة لقمان، آية: ٢١.

(٥) سورة المؤمنون، آية: ٦٩، ٧٠.

(٦) فتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٥٨٣.

ومن جملة الحق الذي رفضوه: القرآن، قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾[١] والذكر هنا: القرآن، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٢] فخرهم وشرفهم الذي كان يجب عليهم أن يقبلوه، ويقبلوا عليه[٣]

والتعصب هو الذي دفع أبا طالب لرد الحق ورفض الدخول في الإسلام؛ فعن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: «**أي عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**» فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله»[٤].

فقد منعته الحمية الجاهلية لقومه عن الإقرار بالتوحيد والنبوة، **قال ابن القيم**: «الذي منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال، وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك لأنفسهم، ورأوا أنهم إن أسلموا سفّهوا أحلام أولئك وضلّلوا عقولهم، ورموهم بأقبح القبائح»[٥].

قال الشوكاني: «ولقد رأيت من أهل عصري في هذا عجباً، فإن بعض من جمعني وإياه الطلب لعلوم الاجتهاد يتعصّب لبعض المصنّفين من قرابته تعصباً مفرطاً، حتى أنه إذا سمع من يعترض عليه أو يستبعد شيئاً قاله؛ اضطرب وتزبد

(١) سورة المؤمنون، آية: ٧١.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٤٤.

(٣) فتح القدير، للشوكاني: ٣/ ٥٨٣.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) مفتاح دار السعادة، لابن القيم: ١/ ٩٧ – ٩٨.

وجهه، وتغيّرت أخلاقه سواء عليه من اعترض بحق أو بباطل، فإنه لا يقبل سمعه في هذا كلاماً، ولا يسمع من نصيح ملاماً»[1].

فالتعصب للأسلاف من الآباء والأجداد والعلماء دفع ويدفع لرد الحق، وعدم قبوله، مع أنه كان من الواجب عليهم أن ينبذوا التعصب، وأن يلتمسوا الحق من معدنه.

قال المعلمي: «دع الآباء والأشياخ والتمس الحق من معدنه، ثم إن شئت فاعرض عليه مقالة آبائك وأشياخك فما وافقه حمدت الله تعالى على ذلك، وما خالفه التمست لهم العذر، برجاء أن يكونوا لم يعتمدوا الباطل، ولم يقصروا تقصيراً لا يسعه عفو الله تبارك وتعالى، بل قد ثبت رجوع بعض أكابرهم، ولعل غيرهم قد رجع وإن لم ينقل، فإذا سلكت هذه الطريق فقد هديت، وإن أبيت إلا التعصب لآبائك وأشياخك، والجمود على اتباعهم فقد قامت عليك الحجة»[2].

والمعيار أن يكون الإنسان مع الدليل في جميع موارده ومصادره لا يثنيه عنه شيء ولا يحول بينه وبينه حائل[3].

والواجب على العقلاء أن ينظروا ما مع الرسل، ويقارنوا بينه وبين ما عليه آباؤهم؛ ليتضح لهم الحق من الباطل، أما إغلاق الباب على أنفسهم، يقولون: ما نقبل إلا ما عليه آباؤنا، ولا نقبل ما يخالفه، فهذا ليس من شأن العقلاء فضلاً عن الذين يريدون النجاة لأنفسهم[4].

وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته ويعادي على ذلك؛ بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان ومن عرف منه التقوى

---

(١) أدب الطلب، للشوكاني، ص: ٦٠.

(٢) القائد إلى تصحيح العقائد، للمعلمي، ص: ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٣) أدب الطلب، للشوكاني، ص: ٩١ .

(٤) شرح مسائل الجاهلية، ص: ٦٤.

من جميع الشيوخ وغيرهم ولا يخص أحداً بمزيد موالاة إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه، فيقدم من قدّم الله تعالى ورسوله عليه، ويفضّل من فضّله الله ورسوله[1].

واتباع الحق والبعد عن التعصب من صفات الرعيل الأول، قال ابن القيم واصفاً حالهم: «زاهدين في التعصب للرجال، واقفين مع الحجة والاستدلال، يسيرون مع الحق أين سارت ركائبه، ويستقلون مع الصواب حيث استقلت مضاربه، إذا بدا لهم الدليل بأخذته طاروا إليه زرافات ووحداناً، وإذا دعاهم الرسول إلى أمر انتدبوا إليه ولا يسألونه عما قال برهاناً، ونصوصه أجل في صدورهم وأعظم في نفوسهم من أن يقدموا عليها قول أحد من الناس، أو يعارضوها برأي أو قياس»[2].

وقال ابن رجب: «كان أئمة السلف المجمع على علمهم وفضلهم يقبلون الحق ممن أورده عليهم وإن كان صغيراً ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم»[3].

والواجب على المسلم أن يوطّن نفسه على الإنصاف وعدم التعصب لا لمذهب من المذاهب ولا لعالم من العلماء[4].

وعليه أيضاً: أن يتبع الحق سواء كان مع إمامه أو مع غيره، وسواء كان مع قبيلته أو مع غيرها، وليس له تركه لقول أحد، قال الشافعي: «أجمع المسلمون على أن من استبانت له سُنّة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس»[5].

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١١/ ٥١٢.

(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم: ١/ ٥ - ٦.

(٣) الفرق بين النصيحة والتعيير، لابن رجب، ص: ٨.

(٤) أدب الطلب، للشوكاني، ص: ٣٦.

(٥) إعلام الموقعين، لابن القيم: ١/ ٦.

والرجوع إلى الحق يوجب لصاحبه من الجلالة والنبالة وحُسن الثناء ما لايكون في تصميمه على الباطل، بل ليس في التصميم على الباطل إلا محض النقص له والإزراء عليه والاستصغار لشأنه[1].

والحط والنقص في التصميم على الباطل[2].

طبقات الناس من حيث الاستجابة للحق:

قسّم الشوكاني[3] الناس من حيث الاستجابة للحق إلى ثلاث فئات:

الأولى: العوام: وهذه الفئة أسرع الناس انقياداً للحق، وأقربهم امتثالاً، على تفاوت فيما بينهم.

الثانية: الخواص: وهذه الفئة أيضاً استجابتهم للحق متيسرة، ذلك أنهم إذا ما سمعوا الدليل وبيّن لهم الحق انقادوا له.

الثالثة: أهل الرأي والتقليد والممارسة: وهذه الفئة أشد الناس تعصباً وتعنتاً، وبُعداً من الحق، ورجوعهم إلى الحق من أبعد الأمور وأصعبها؛ لأن فطرهم قد تغيّرت، وخلقتهم قد تكدّرت.

وهذه الفئة أشبه شيء بالجبابرة وأهل المباشرة للمظالم، فلا مطمع في إخراجهم عن التعصب إلا بتوفيق الله وهدايته، فإنه إذا أراد أمراً يسّر أسبابه وسهّل طرائقه.

وأهل هذه الطبقة أشد عداوة للحق وأهله على تفاوت فيما بينهم.

علاج التعصب:

أولاً: إخلاص النية، والتجرد في الوصول إلى الحق والعمل به.

---

(١) أدب الطلب، للشوكاني، ص: ٨٩.

(٢) أدب الطلب، للشوكاني، ص: ٩٠.

(٣) أدب الطلب، للشوكاني، ص: ٦٦ وما بعدها.

ثانياً: تجنب الأسباب المؤدية للتعصب: قال الشوكاني: «إن أصيب بأحد أسباب التعصب من حيث لا يشعر فقد وقع في محنة، فإن عرفها فليجتنبها كما يجتنب العليل ما ورد عليه من الأمور التي كانت سبباً لوقوعه في المرض»[(١)].

ثالثاً: سؤال أهل العلم المنصفين والرجوع إليهم: قال الشوكاني: «فليسأل أهل العلم المنصفين عن دواء ما أصابه من التعصب، فإنه سيجد عندهم من الأدوية ما هو أسرع كشفاً، وأقرب نفعاً، وأنجع براً مما يجده العليل عند الأطباء»[(٢)].

رابعاً: قيام العلماء المنصفين بواجب البيان والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة: قال الشوكاني: «وكل قائم بحجة الله إذا بيّنها للناس كما أمره الله، وصدع بالحق، وضرب بالبدعة في وجه صاحبها، وألقم المتعصب حجراً، وأوضح له ما شرعه الله لعباده، وأنه في تمسكه بمحض الرأي، فإن قبل منه ظفر بما وعده رسول الله ﷺ من الأجر في حديث: «**لأن يهدى الله بك رجلاً**»[(٣)].

وإن لم يقبل منه كان قد فعل ما وجب الله عليه وخلّص نفسه من كتم العلم الذي أمره الله بإفشائه، وخرج من ورطة أن يكون من الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى»[(٤)].

خامساً: الابتعاد عن الأساليب المنفّرة، وذلك بألا يأتي الناس بغتة ويصك وجوههم مفاجئة ومجاهرة، وينعى عليهم ما هم فيه نعياً صراحاً، ويطلب منهم مفارقة ما ألفوه طلباً مضيفاً، ويقتضيه اقتضاء حثيثاً[(٥)].

وليتحفّظ من النكد الذي يحرّك داعية الضلال، وليتحقّق أن مهيج داعية

---

(١) أدب الطلب، للشوكاني، ص: ٩١.

(٢) أدب الطلب، للشوكاني، ص: ٩١.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) أدب الطلب، للشوكاني، ص: ٤٢.

(٥) أدب الطلب، للشوكاني، ص: ٦٦.

الإصرار بالعناد والتعصب معين على الإصرار على البدعة ومطالب بعهده اعانته في القيامة[1].

وأن يحرص على استخدام الأساليب الجذّابة، وذلك بأن «يسلك معهم مسالك المتبصّرين في جذب القلوب إلى ما يطلبه الله من عباده»[2].

وعليه أن يأتيهم من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير[3].

وليترك الحقد والضغينة وينظر إلى كافة خلق الله بعين الرحمة، وليستعن بالرفق واللطف في إرشاد من ضل من هذه الأمة[4].

وأن يرغّبهم «في ثواب المنقادين إلى الشرع، المؤثرين للدليل على الرأي، وللحق على الباطل»[5].

سادساً: العدل والإنصاف عند عرض حجج المخالفين، وعدم غمطهم حقهم، فذلك أدعى لقبولهم للحق، ونبذهم للتعصب.

سابعاً: الاطلاع على الخلاف الفقهي، فأكثر المصارعات التي تحدث سببها أن أحد الأطراف أو أغلبها لا يكون عالماً بأن القضية خلافية.

ثامناً: تعميق ثقافة الاحترام وفقه الاختلاف، ودراسة سيرة الفقهاء القدماء والمعاصرين الذين اختلفوا في الرأي مع بعضهم.

تاسعاً: قيام المؤسسات العلمية والإعلامية بدورها الإيجابي في الحث على الانقياد للحق ونبذ التعصب.

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، ص: ١٥.

(٢) أدب الطلب، للشوكاني، ص: ٦٦.

(٣) إحياء علوم الدين، للغزالي: ١/ ٤٠.

(٤) الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، ص: ١٥.

(٥) أدب الطلب، ص: ٦٦.

المبحث الثامن
التقليد

تعريف التقليد:

التقليد لغة: التعلّق واللزوم والمحاكاة: و«التقليد» مصدر «قلد»[1] يقلد، تقليداً، فهو مقلد، والمفعول مقلد[2].

التقليد اصطلاحاً:

قال الغزالي: «التقليد قول بلا حجة»[3].

وقال الآمدي: «العمل بقول الغير من غير حجة ملزمة»[4].

وقال ابن تيمية: «التقليد قبول القول بغير دليل»[5].

وقال ابن الهمام: «العمل بقول من ليس قوله إحدى الحجج بلا حجة منهما»[6].

واختار هذا التعريف الشوكاني فقد قال معلقاً عنه: «هذا الحد أحسن من الذي قبله»[7].

وقال الجرجاني: «أخذ قول الغير بلا حجة، أو العمل بقول الغير من غير حجة ولا دليل»[8].

وهذا أجمع وأشمل تعريف.

---

(١) المطلع على ألفاظ المقنع، لشمس الدين البعلي، ص: ٢٤٣.
(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عبد الحميد، وآخرين: ٣/ ١٨٥٠.
(٣) المستصفى، للغزالي، ص: ٣٧٠.
(٤) الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي: ٤/ ٢٢١.
(٥) المسودة في أصول الفقه، لابن تيمية، ص: ٤٦٢.
(٦) التقرير والتحبير، لابن الهمام: ٣/ ٣٤٠.
(٧) إرشاد الفحول، للشوكاني: ٢/ ٢٣٩.
(٨) التعريفات، للجرجاني، ص: ٦٤.

الفرق بين التقليد والاتباع:

فرّق الله ورسوله وأهل العلم بين التقليد والاتباع كما فرّقت الحقائق بينهما[١]، ومن العلماء الذين فرّقوا بينهما ابن عبد البر[٢] فقد قال: «التقليد الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه.

والاتباع ما ثبت عليه حجة.

فكل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قبوله لدليلٍ يوجب ذلك فأنت مقلده.

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه.

أقسام التقليد:

قسّم العلماء التقليد إلى عدة أقسام بناء على عدة اعتبارات.

فقد قسّموه باعتبار العموم والخصوص إلى قسمين، وممن قسّمه إلى ذلك ابن عثيمين[٣]:

الأول: العام: وهو أن يلتزم مذهباً معيناً يأخذ برخصه وعزائمه في جميع أمور دينه.

الثاني: الخاص: وهو أن يأخذ بقول معين في قضية معينة.

فالقسم الأول: اختلف العلماء فيه؛ فمنهم من حكى وجوبه لتعذّر الاجتهاد في المتأخرين، ومنهم من حكى تحريمه لما فيه من الالتزام المطلق لاتباع غير النبي ﷺ، **قال ابن تيمية**: «إن في القول بوجوب طاعة غير النبي ﷺ في كل أمره ونهيه، وهو خلاف الإجماع وجوازه فيه ما فيه»[٤].

وقال: «من التزم مذهباً معيناً، ثم فعل خلافه من غير تقليد لعالم آخر أفتاه،

---

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٢/ ١٣١.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن رجب: ٢/ ٩٩٣.

(٣) الأصول من علم الأصول، لابن عثيمين، ص: ٨٨.

(٤) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية: ٥/ ٥٥٦.

ولا استدلال بدليل يقتضي خلاف ذلك، ولا عذر شرعي يقتضي حل ما فعله؛ فهو متبع لهواه فاعل للمحرم بغير عذر شرعي؛ وهذا منكر؛ وأما إذا تبين له ما يوجب رجحان قول على قول، إما بالأدلة المفصّلة إن كان يعرفها ويفهمها، وإما بأن يرى أحد الرجلين أعلم بتلك المسألة من الآخر، وهو أتقى لله فيما يقوله، فيرجع عن قول إلى قول لمثل هذا، فهذا يجوز بل يجب، وقد نص الإمام أحمد على ذلك»(١).

وأما القسم الثاني: فجائز إذا عجز عن معرفة الحق بالاجتهاد، سواء عجز عجزاً حقيقياً، أو استطاع ذلك مع المشقة العظيمة(٢).

وقسّموه باعتبار الجواز والمنع إلى ثلاثة أقسام، وممن قسمه إلى ذلك ابن القيم، فقد قال: «تفصيل القول في التقليد وانقسامه إلى: ما يحرم القول فيه والإفتاء به، وإلى ما يجب المصير إليه، وإلى ما يسوغ من غير إيجاب»(٣).

القسم الأول: المحرم: وهو ما عبّر عنه ابن القيم بقوله: «ما يحرم القول فيه والإفتاء به»(٤)، وهو الغالب الأعم، وهو الذي جاءت نصوص الكتاب والسُّنَّة وكلام الأئمة بذمّه والتحذير منه، وله صورة كثيرة، وأنواع متعددة؛ منها:

١- الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء(٥).

٢- تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله(٦).

٣- التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد(٧).

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٢٠/ ٢٢٠ - ٢٢١.

(٢) الأصول من علم الأصول، لابن عثيمين، ص: ٨٨.

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٢/ ١٢٩.

(٤) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٢/ ١٢٩.

(٥) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٢/ ١٢٩ .

(٦) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٢/ ١٢٩ .

(٧) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٢/ ١٢٩ .

٤- تقليد المجتهد الذي ظهر له الحكم باجتهاده مجتهداً آخر يرى خلاف ما ظهر له[1].

٥- تقليد رجل واحد معين دون غيره من جميع العلماء، أو مذهب معين دون غيره يوافقه على كل ما يقول وإن خالف الأدلة الشرعية الصريحة الصحيحة، قال فهذا النوع من التقليد «لم يرد به نص من كتاب ولا سنة، ولم يقل به أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ولا أحد من القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير، وهو مخالف لأقوال الأئمة الأربعة رحمهم الله، فلم يقل أحد منهم بالجمود على رجل واحد معين دون غيره من جميع المسلمين»[2].

٦- تتبع الرخص والتسهيلات في المذاهب وفتاوى المجتهدين، وذلك كأن يجمع المقلد في قضايا ما هو أسهل عليه من المذاهب، أو يقع المقلد في قضية فيها حكم شرعي، فلا يقلد من يترجح تقليده من جهة ولايته، أو قوة دليله، أو تقواه، ولكنه يختار من المفتين في قضاياه من تكون فتواه في القضية المعينة سهلة على المقلد جارية على هواه، **قال ابن عبد البر**: «لايجوز للعامي تتبع الرخص إجماعاً»[3]، **وقال ابن تيمية**: «إذا جوّز للعامي أن يقلّد من يشاء فالذي يدلّ عليه أصحابنا وغيرهم أنه لايجوز له تتبع الرخص مطلقاً»[4].

الثاني: الجائز: وهو ما عبّر عنه ابن القيم بقوله: «وإلى ما يسوغ من غير إيجاب»[5]، وذلك في حالات معينة نص عليها علماء أصول الفقه، ومنها: تقليد العامي عالماً أهلاً للفتيا في نازلة نزلت به، **قال الشنقيطي**: «التقليد الجائز الذي لا يكاد يخالف فيه أحد من المسلمين تقليد العامي عالماً أهلاً للفتيا في

(١) أضواء البيان، للشنقيطي: ٧/ ٣٠٧.

(٢) أضواء البيان، للشنقيطي: ٧/ ٣٠٧.

(٣) التحبير شرح التحرير لعلاء الدين المرداوي الصالحي: ٨/ ٤٠٩١.

(٤) المسودة، لابن تيمية، ص: ٥١٨.

(٥) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٢/ ١٢٩.

نازلة نزلت به، وهذا النوع من التقليد كان شائعاً في زمن النبي ﷺ، ولا خلاف فيه»[١].

وقال ابن عبد البر: «العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها... ولم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المرادون بقوله عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[٢]، وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه، فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه[٣].

الثالث: الواجب: وهو ما عبّر عنه ابن القيم بقوله: «وإلى ما يجب المصير إليه»[٤]، وذلك في حالات نادرة جداً نص عليها العلماء، ومنها: حالة الضرورة، والعجز وعدم القدرة.

.ذم التقليد:

حسبك في ذم التقليد أن المقلد «لا فرق بينه وبين بهيمة تقاد»[٥]

قال ابن رجب:

لا فرق بين مقلد وبهيمة
تنقاد بين جنادل ودعاثر
تبا لقاضٍ أو لمفتٍ لا يرى
عللاً ومعنى للمقال السائر[٦]

(١) أضواء البيان، للشنقيطي: ٧/ ٣٠٦.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن رجب: ٢/ ٩٨٩.

(٤) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٢/ ١٢٩.

(٥) جامع بيان العلم وفضله، لابن رجب: ٢/ ٩٨٩.

(٦) جامع بيان العلم وفضله، لابن رجب: ٢/ ٩٨٨.

قال ابن الجوزي: «في التقليد إبطال منفعة العقل؛ لأنه إنما خُلق للتأمل والتدبر وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة»[1].

والتقليد عدو، كما قال ابن القيم:

والثالث الأعمى المقلد ذينك الر ... جلين قائد زمرة العميان

فاللعن والتكفير والتبديع والتـ ... ـضليل والتفسيق بالعدوان

فإذا هم سألوه مستنداً له ... قال اسمعوا ما قاله الرجلان[2]

وهو سبب من أسباب الانحراف والضلال، قال ابن القيم: «إن الضلال له سببان: إما غفلة عن الحق، وإما تقليد أهل الضلال»[3].

وقال ابن الجوزي: «دخل إبليس على هذه الأمة في عقائدها من طريقين:

أحدهما: التقليد للآباء والأسلاف.

والثاني: الخوض فيما لا يدرك غوره ويعجز الخائض عن الوصول إلى عمقه، فأوقع أصحاب هذا القسم في فنون من التخليط.

فأما الطريق الأول فإن إبليس زيّن للمقلدين أن الأدلة قد تشتبه والصواب قد يخفى والتقليد سليم، وقد ضل في هذا الطريق خلق كثير وبه هلاك عامة الناس، فإن اليهود والنصارى قلّدوا آباءهم وعلماءهم فضلّوا، وكذلك أهل الجاهلية[4].

---

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص: ٧٤.

(٢) الكافية الشافية، لابن القيم، ص: ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٣) أحكام أهل الذمة، لابن القيم: ٢/ ٩٥٠.

(٤) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص: ٧٤.

وهو من سمة سمات اليهود والنصارى، قال تعالى عنهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1] **قال عدي بن حاتم**: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب فقال لي: «**يا عدي بن حاتم: ألقِ هذا الوثن من عنقك**» وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: قلت: يا رسول الله إنا لم نتخذهم أرباباً، قال: «**بلى، أليس يحلّون لكم ما حرّم عليكم فتحلّونه، ويحرّمون عليكم ما أحلّ الله لكم فتحرّمونه؟**» فقلت: بلى، قال: «**تلك عبادتهم**»[2].

وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ قال: كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه، فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشيء، فما أمرونا به ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم. فاستنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، فقد بيّن النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال؛ لا أنهم صلّوا لهم، وصاموا لهم، ودعوهم من دون الله، فهذه عبادة للرجال»[3].

وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً، حيث أطاعوهم في تحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحلّ الله يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدّلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرّم الله، وتحريم ما أحلّ الله، اتباعاً لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلّون لهم ويسجدون لهم، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين، واعتقد ما قاله ذلك، دون ما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٣١.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن رجب: ٢/ ٩٧٥.

(٣) الإيمان، لابن تيمية، ص: ٥٨.

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله؛ كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب؛ كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما الطاعة في المعروف**»[1]، وقال: «**على المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره، ما لم يؤمر بمعصية**»[2].

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلّل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر، وقد اتقى الله ما استطاع فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه. ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول، ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسول فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمّه الله، لاسيما إن اتبع في ذلك هواه، ونصره باللسان واليد، مع علمه بأنه مخالف للرسول، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه.

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال، وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق، لا يؤاخذ بما عجز عنه، وهؤلاء كالنجاشي وغيره. وقد أنزل الله في هؤلاء آيات من كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[5].

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث علي بن أبي طالب.

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله مسعود.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٩٩.

(٤) سورة الأعراف، آية: ١٥٩.

(٥) سورة المائدة، آية: ٨٣.

وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ، كما في القبلة. وأما إن قلّد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه، من غير علم أن معه الحق فهذا من أهل الجاهلية، وإن كان متبوعه مصيباً، لم يكن عمله صالحاً. وإن كان متبوعه مخطئاً، كان آثماً، كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار[1].

وهو أصل من أصول أهل الجاهلية، قال محمد بن عبد الوهاب وهو يتحدث عن مسائل الجاهلية: «الرابعة: أن دينهم مبني على أصول أعظمها: التقليد، فهو القاعدة الكبرى لجميع الكفار أولهم وآخرهم»[2]؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾[4]، فهذه الآيات وغيرها تدل «على أن أهل الجاهلية كانوا في ربقة التقليد، لا يحكمون لهم رأياً، ولا يشغلون فكراً؛ فلذلك تاهوا في أودية الجهالة، وهكذا كل من سلك مسلكهم في أي عصر كان»[5].

وهو سبب من أسباب التشرذم والتمزّق والاختلاف، فقد جاء في حديث العرباض بن سارية قال: قال ﷺ: «... **فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيراً...**»[6]، **قال ابن القيم:** «إنما كثر الاختلاف وتفاقم أمره بسبب

---

(١) الإيمان، لابن تيمية، ص: ٦٠ - ٦٢.

(٢) مسائل الجاهلية، لابن عبد الوهاب، ص: ٨.

(٣) سورة الزخرف، آية: ٢٣.

(٤) سورة لقمان، آية: ٢١.

(٥) فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية، تقديم وتعليق، محب الدين الخطيب، ص: ٢٣

(٦) رواه أبو داود: ٤/ ٢٠١، والترمذي: ٥/ ٤٤، وابن ماجه: ١/ ١٦، وأحمد: ٢٨/ ٣٦٧، وصححه الألباني.

التقليد وأهله، وهم الذين فرّقوا الدين وصيّروا أهله شيعاً، كل فرقة تنصر متبوعها، وتدعو إليه، وتذم من خالفها، ولا يرون العمل بقولهم حتى كأنهم ملّة أخرى سواهم، يدأبون ويكدحون في الرد عليهم، ويقولون: كتبهم، وكتبنا وأئمتهم وأئمتنا، ومذهبهم ومذهبنا[1].

وهو علامة من علامة أهل البدع، قال ابن القيم: «ورضوا لأنفسهم بتقليد أقوال مخالفة للفطرة والعقل والشرع، وظنوها قواطع عقلية، وقدّموها على نصوص الأنبياء، وهي في الحقيقة شبهات مخالفة للسمع والعقل».[2]

وهو سبب من أسباب تسلط أهل الباطل على أهل الحق، قال المعلمي: «فلما انحدر المسلمون إلى هوّة التقليد وصار فيهم من يقول: الأصل كلام أصحابنا، ونرد ما خالفه من كتاب وسُنَّة دالت دولة المسلمين واستولى عليهم من لا يقيم للإسلام وزناً وإن تظاهر به لإسكات العامة، ثم كانت المصائب أتخم بها بطن التاريخ من غزو التتار لشرق البلاد وفيهم أتباع مقتدي الأمة وقدوة الأئمة، وغزو الإفرنج للشام ومصر، وقبلها تنصير مسلمي الأندلس، ثم تنفّس الإسلام بحيويته الكامنة؛ فكان طرد الفرنجة من الشام وشواطئ مصر وغزو الترك لشرق أوروبا وفتح القسطنطينية.

ثم فترت همّة الإسلام بشؤم التقليد، والإعراض عن الكتاب والسُّنَّة، حتى كان ما نراه اليوم وقبل اليوم من استيلاء الدهرية الأوروبية على معاقل الإسلام وحصونه ودياره من الهند وأندونيسيا وشواطئ إفريقيا؛ الجزائر وتونس ومراكش وطرابلس ومصر والشام والعراق وأطراف الأمبراطورية العثمانية وارتماء تركيا الحديثة إلى أحضان أوروبا ودهريتها وخلاعتها»[3]

---

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٢/ ١٧٣.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ١٨٣.

(٣) التنكيل، للمعلمي: ١/ ١٣١ - ١٣٢.

أثر التقليد في رد الحق:

التقليد داء قاتل دفع أهل الباطل إلى رد الحق.

وهو حجة جاهلية تمسك بها أهل الباطل منذ القدم في ردهم للحق وعدم قبولهم له، كما حكى الله ذلك في القرآن في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1]، فتمسك الجهّال بالتقليد كان من قديم الدهر[2].

وهو الداء الذي جعل أهل الباطل يتمادون في رد الحق كما قال الشاطبي: «حتى ردّوا بذلك براهين الرسالة، وحجّة القرآن، ودليل العقل»[3].

وهو ذريعة شيطانية، ووسيلة طاغوتية استند عليها أهل الباطل في رد الحق، والاستمرار على الباطل، قال الشوكاني: «بهذه الذريعة الشيطانية، والوسيلة الطاغوتية بقى المشرك من الجاهلية على شركه، واليهودي على يهوديته، والنصراني على نصرانيته، والمبتدع على بدعته، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وتبدّلت الأمة بكثير من المسائل الشرعية وغيرها، وألفوا ذلك، ومُرِّنت عليه نفوسهم، وقبلته قلوبهم، وأنسوا إليه»[4].

فقد تذرّع بذريعة التقليد قوم نوح عليه السلام في رد الحق الذي جاءهم به نوح عليه السلام، فقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا له: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾[5].

واتكأ عليه قوم إبراهيم عليه السلام في رد الحق الذي جاءهم به، فإنه

---

(١) سورة الزخرف، آية: ٢٣.

(٢) مفاتيح الغيب، للرازي: ٢٧/ ٦٢٧.

(٣) الاعتصام، للشاطبي، ص: ٨٦٣.

(٤) الدر النفيس، للشوكاني، ص: ٢٨ – ٢٩.

(٥) سورة المؤمنون، آية: ٢٤.

لما خاطبهم منكراً عليهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾[1]؟ ردّوا عليه: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣﴾[2]، ولما خاطبهم قائلاً لهم: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤﴾[3] فلم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال[4]، وقد أجابوه بهذا الجواب الذي هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز، والحبل الذي يتشبث به كل غريق، وهو: التمسك بمجرد تقليد الآباء، أي وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم، ومشياً على طريقتهم[5].

وتذرّع به المشركون في ردّهم للحق الذي جاءهم به محمد ﷺ، وبقوا على باطلهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾[6] اكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء[7]، وليس عندهم علم بل عندهم اتباع سلفهم وهو الذي اعتادوه وتربوا عليه[8].

وهو الحجة التي تذرّع ويتذرّع بها المقلّدة من المسلمين في ردّهم للحق وعدم قبولهم له، **قال الشوكاني**: «إن هؤلاء المقلّدة في الإسلام إنما يعملون بقول أسلافهم، ويتبعون آثارهم، ويقتدون بهم، فإذا رام الداعي إلى الحق أن يخرجهم من ضلالة أو يدفعهم عن بدعة قد تمسّكوا بها وورثوها عن أسلافهم بغير دليل نيّر ولا حجّة واضحة، بل بمجرد قال وقيل لشبهة داحضة، وحجة زائفة، ومقالة

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٥٢.
(٢) سورة الأنبياء، آية: ٥٣.
(٣) سورة الشعراء: ٧٢، ٧٣، ٧٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥/ ٣٠٥.
(٥) فتح القدير: ٣/ ٥٨٩ .
(٦) سورة البقرة، آية: ١٧٠ .
(٧) تيسير الكريم الرحمن، لابن سعدي، ص: ٨١.
(٨) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٩/ ٢٦٣.

باطلة، قالوا بما قاله المترفون من هذه الملل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾، أو بما يلاقي معناه معنى ذلك، فإن قال لهم الداعي إلى الحق: قد جمعتنا الملة الإسلامية وشملنا هذا الدين المحمدي، ولم يتعبّدنا الله ولا تعبّدكم ولا تعبّد آباءكم من قبلكم إلا بكتابه الذي أنزله على رسوله وبما صحّ عن رسوله، فإنه المبيّن لكتاب الله الموضّح لمعانيه، الفارق بين محكمه ومتشابهه، فتعالوا نرد ما تنازعنا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله كما أمرنا الله بذلك في كتابه بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(١)، فإن الرد إليهما أهدى لنا ولكم من الرد إلى ما قاله أسلافكم ودرج عليه آباؤكم، نفروا نفور الوحوش، ورموا الداعي لهم إلى ذلك بكل حجر ومدر، كأنهم لم يسمعوا قول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾(٢)، ولا قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾(٣)، فإن قال لهم القائل: هذا العالم الذي تقتدون به وتتبعون أقواله هو مثلكم في كونه متعبّداً بكتاب الله وسُنَّة رسوله، مطلوباً منه ما هو مطلوب منكم، وإذا عمل برأيه عند عدم وجدانه للدليل، فذلك رخصة له لا يحل أن يتبعه غيره عليها، ولا يجوز لهم العمل بها، وقد وجدوا الدليل الذي لم يجده، وها أنا أوجدكموه في كتاب الله، أو فيما صح من سُنَّة رسوله، وذلك أهدى لكم مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا: لا نعمل بهذا ولا سمع لك ولا طاعة، ووجدوا في صدورهم أعظم الحرج من حكم الكتاب والسُّنَّة، ولم يسلموا بذلك ولا أذعنوا له، وقد وهب لهم الشيطان عصا يتوكؤون عليها عند أن يسمعوا من يدعوهم إلى الكتاب والسُّنَّة، وهي أنهم يقولون: إن إمامنا الذي قلّدناه واقتدينا به أعلم منك بكتاب الله وسُنة رسوله، وذلك لأن أذهانهم

(١) سورة النساء، آية: ٥٩.

(٢) سورة النور، آية: ٥١ .

(٣) سورة النساء، آية: ٦٥ .

قد تصوّرت من يقتدون به تصوراً عظيماً بسبب تقدّم العصر وكثرة الأتباع، وما علموا أن هذا منقوض عليهم مدفوع به في وجوههم، فإنه لو قيل لهم: إن في التابعين من هو أعظم قدراً، وأقدم عصراً من صاحبكم، فإن كان لتقدم العصر وجلالة القدر مزية حتى توجب الاقتداء، فتعالوا حتى أريكم من هو أقدم عصراً وأجل قدراً، فإن أبيتم ذلك، ففي الصحابة رضي الله عنهم من هو أعظم قدراً من صاحبكم علماً وفضلاً وجلالة قدراً، فإن أبيتم ذلك، فها أنا أدلّكم على من هو أعظم قدراً وأجل خطراً وأكثر أتباعاً وأقدم عصراً، وهو محمد بن عبد الله نبينا ونبيكم ورسول الله إلينا وإليكم، فتعالوا فهذه سنته موجودة في دفاتر الإسلام ودواوينه التي تلقتها جميع هذه الأمة قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر، وهذا كتاب ربنا خالق الكل ورازق الكل وموجد الكل بين أظهرنا موجود في كل بيت، وبيد كل مسلم لم يلحقه تغيير ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقص، ولا تحريف ولا تصحيف، ونحن وأنتم ممن يفهم ألفاظه ويتعقّل معانيه، فتعالوا لنأخذ الحق من معدنه ونشرب صفو الماء من منبعه، فهو أهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا: لا سمع ولا طاعة؛ إما بلسان المقال أو بلسان الحال[١].

واحتجاج أهل الباطل في ردهم للحق «بتقليدهم لآبائهم الضالين ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل[٢]. بل هذا «شأن من لا غرض له في الهدى ولا في اتباع الحق إن غرضه بالتقليد إلا دفع الحق والحجة إذا لزمته؛ لأنه لو كان مقصوده الحق لاتبعه إذا ظهر له، وقد جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم» فلو كنتم ممن يتبع الحق لأتبعتم ما جئتكم به فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم على حق فقد جئتكم أهدى مما وجدتموهم عليه، وإنما جعلتم تقليدهم جنة لكم تدفعون بها الحق الذي جئتكم به[٣]

---

(١) فتح القدير، للشوكاني: ٤/ ٦٣٢ - ٦٣٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، لابن سعدي، ص: ٧٦٤.

(٣) بدائع الفوائد، لابن القيم: ٤/ ١٧٤.

وهذا الداء الذي تذرّع ويتذرّع به أهل الباطل في رد الحق قد جاءت نصوص الشريعة بذمّه، **قال ابن تيمية:** «قد ذمّ الله تعالى في القرآن من عدل عن اتباع الرسل إلى ما نشأ عليه من دين آبائه وهذا هو التقليد الذي حرّمه الله ورسوله، وهو أن يتبع غير الرسول فيما خالف فيه الرسول، وهذا حرام باتفاق المسلمين على كل أحد؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والرسول طاعته فرض على كل أحد من الخاصة والعامة في كل وقت وكل مكان؛ في سره وعلانيته وفي جميع أحواله. وهذا من الإيمان، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾[2]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[3]، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[4]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[5]، وقد أوجب الله طاعة الرسول على جميع الناس في قريب من أربعين موضعاً من القرآن، وطاعته طاعة لله»[6]، فمن أطاع متبوعاً في خلاف الحق فله نصيب من الذم[7].

---

(١) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٢) سورة النور، آية: ٥١ .

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٤) سورة النور، آية: ٦٣ .

(٥) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٦) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٢٦١ - ٢٦٠.

(٧) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٩/ ٢٦٢.

الوسائل المعينة على ترك التقليد:

أولاً: النظر والاستدلال: قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾[1].

ثانياً: طلب العلم من مظانه الصحيحة، فـ«إنما نشأ التقليد من شدة التفريط في تعلم الكتاب والسُّنَّة والإعراض عنهما إعراضاً كلياً يتوارثه الأبناء عن الآباء، والآباء عن الأجداد[2]، فمن علاج التقليد: الحرص على طلب العلم، ثم العمل به.

ثالثاً: اتباع القدوة الحسنة: قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾[3]، وهم الأنبياء والرسل، والمقتفون لآثارهم، والمتبعون لهم إلى يوم الدين.

رابعاً: استشعار المقلّد أنه على غير هدى، وأنه سيتحمّل تبعة تقليده، ولا يدفع المتبوعون عنه شيئاً، قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾[4].

خامساً: معرفة أهمية معرفة الدليل، وأن طالب العلم يجب عليه أن يتلقى المسائل بدلائلها، وهذا هو الذي ينجيه عند الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله سيقول له يوم القيامة: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾[5]، ولن يقول: ماذا أجبتم فلان الفلاني؟

سادساً: التربية على الاستقلالية والتحري، والبحث عن الدليل.

---

(١) سورة ص، آية: ٢٩.

(٢) أضواء البيان، للشنقيطي: ٧/ ٣٥٤.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٩٠.

(٤) سورة الإسراء، آية: ١٥.

(٥) سورة القصص، آية: ٦٥.

المبحث التاسع

تقديم العقل على النقل

تعريف العقل:

العقل لغة: الحبس والمنع: وهو مصدر عقل، يعقل، عقلاً، ومعقولاً[1].

قال ابن فارس: «العين والقاف واللام» أصل واحد يدل على حبسة في الشيء أو ما يقارب الحبسة، والعقل: الحابس عن ذميم القول والفعل[2].

العقل اصطلاحاً: تعددت أقوال العلماء وتنوّعت في تعريف العقل، والتعريف المختار في تعريفه: أنه يشتمل على أربعة معانٍ[3]:

أحدها: الوصف الذي يفارق به الإنسان البهائم.

الثاني: ما وضع في الطباع من العلم بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب.

الرابع: قمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة.

وقد جمع هذه المعاني ابن تيمية في قوله: «هو علم، أو عمل بالعلم، وغريزة تقتضي ذلك»[4].

تعريف النقل: هي نصوص الكتاب والسُّنَّة النبوية.

تفاوت العقول:

الناس متفاوتون في العقول؛ فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري: ٥/ ١٧٦٩.

(٢) مقاييس اللغة، لابن فارس: ٤/ ٦٩.

(٣) الأذكياء، لابن الجوزي، ص: ١٠ - ١١، وإحياء علوم الدين، للغزالي: ١/ ٨٦ - ٨٥.

(٤) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١٠/ ٣٠٢.

الله ﷺ: «.. **ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهل للب الرجل الحازم من إحداكن**»(١) دلّ الحديث بمنطوقه على النقصان، وبمفهومه على الزيادة.

والعقل مما يقبل الزيادة والنقصان(٢).

«ومنازل الخلق فيه متفاوتة أعظم تفاوت، وأبصارهم مختلفة، وليس العقل بأسره في واحد من الناس، أو طائفة معينة، حتى يكون تقديم عقولهم على ما جاءت به الرسل، بل لكل طائفة معقول مخالف معقول الأخرى»(٣).

والناس كما أنهم متفاوتون في قوى الأبدان فإنهم متفاوتون في قوى الأذهان أعظم تفاوت(٤).

والتفاوت في العقل ليس محصوراً من شخص إلى آخر، أو من فئة إلى فئة بل التفاوت في العقل يكون للإنسان نفسه، ففي فترة ما يكون أعقل من فترة أخرى، **قال الشاطبي**: «الإنسان -وإن زعم في الأمر أنه أدركه وقتله علماً- لا يأتي عليه الزمان إلا وقد عقل فيه ما لم يكن عقل، وأدرك من علمه ما لم يكن أدرك قبل ذلك؛ كل أحد يشاهد ذلك من نفسه عياناً، ولا يختص ذلك عنده بمعلوم دون معلوم»(٥).

مكانة العقل عند أهل الحق:

للعقل عند أهل الحق مكانته اللائقة به، وهم في ذلك وسط بين طرفين(٦):

الطرف الأول: من جعل العقل أصلاً كلياً أولياً، يستغني بنفسه عن الشرع.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٠/ ٧٢١.

(٣) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٨١٧.

(٤) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٥٠٧.

(٥) الاعتصام، للشاطبي، ص: ٨٣٥ - ٨٣٦.

(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٣/ ٣٣٨.

الطرف الثاني: من أعرضٍ عن العقل، وذمّه وعابه، وخالف صريحه، وقدح في الدلائل العقلية مطلقاً.

والوسط في ذلك: أن العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، لذلك كانت سلامة العقل شرطاً في التكليف، فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة، وقد أمر الله باستماع القرآن وتدبره بالعقول، قال تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا** ﴿٨٢﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ** ﴿٦٨﴾ ﴾[2].

والعقل هو المدرك لحجّة الله على خلقه[3]، ولكنه لا يستقل بنفسه، بل هو محتاج إلى الشرع الذي عرفناه ما لم يكن لعقولنا سبيل إلى استقلالها بإدراكه أبداً، إذ العقل غريزة في النفس وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها[4].

أقسام العلوم من حيث إدراك العقل لها:

قسّم العلماء العلوم من حيث إدراك العقل لها إلى ثلاثة أقسام، وممن قسّمها إلى ذلك ابن تيمية[5]:

الأول: ما لا يعلم إلا بالأدلّة العقلية، وذلك كثبوت النبوّة، وصدق الخبر، وأحسن هذه الأدلة ما بيّنه القرآن، وأرشد إليه.

---

(١) سورة النساء، آية: ٨٢.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٦٨.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٣/ ٣٣٨، ٣٣٩، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٥٨.

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٣/ ٣٣٩، والصواعق المرسلة، لابن القيم: ٢/ ٤٥٨ – ٤٥٩.

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٣/ ١٣٧ – ١٣٩.

الثاني: ما لا يعلم إلا بالأدلّة النقلية، وذلك كتفاصيل الأمور الإلهية، وتفاصيل العبادات، وذلك إنما يكون بطريق خبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المجرد.

الثالث: ما يعلم بالسمع والعقل، وذلك مثل كون رؤية الله ممكنة أو ممتنعة.

أصناف الناس من حيث التعامل مع العقل والنقل:

من خلال النظر والتأمل في تعامل الناس مع العقل والنقل في الماضي والحاضر يمكننا أن نصنف الناس إلى ثمانية أصناف:

الصنف الأول: الذين مجّدوا العقل وأعرضوا عن النص «كالمعتزلة».

الصنف الثاني: المغرورون بالعقل «الفلاسفة».

الصنف الثالث: السائرون على خطى الانحراف والضلال «كالعصرانيين أو التنويريين».

الصنف الرابع: المنكرون لحقائق العقل «السفسطائيون».

الصنف الخامس: أهل الخرافة الذين ألغوا العقل ومجّدوا الغيبيات.

الصنف السادس: الماديون الذين مجّدوا العقل وألغوا الغيبيات «كالمجتمع الغربي».

الصنف السابع: أهل الشقاق والنفاق الذين مجّدوا العقل وطعنوا في السُّنَّة النبوية «كالرافضة».

الصنف الثامن: أهل الإسلام الحق الذين آمنوا بالنقل واحترموا العقل.

دعوى تعارض العقل مع النقل:

وضع أهل الباطل الذين قدّموا العقل على النقل لهم قانوناً، وافتروا فرية على العقل والنقل، وهي: دعوى التعارض بينهما، وقد لخّص ابن تيمية هذه الدعوى[1] في قوله: «قول القائل: إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية، أو

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ٤.

السمع والعقل، أو النقل والعقل، أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية، أو نحو ذلك من العبارات.

فإما أن يجمع بينهما، وهو محال؛ لأنه جمع بين النقيضين، وإما أن يردا جميعاً.

وإما أن يقدّم السمع، وهو محال؛ لأن العقل أصل النقل، فلو قدّمناه عليه كان ذلك قدحاً في العقل الذي هو أصل النقل، والقدح في أصل الشيء قدح فيه، فكان تقديم النقل قدحاً في النقل والعقل جميعاً، فوجب تقديم العقل، ثم النقل إما أن يتأول، وإما أن يفوض.

وأما إذا تعارضا تعارض الضدين امتنع الجمع بينهما، ولم يمتنع ارتفاعهما.

الرد على دعوى تعارض العقل والنقل:

انبرى العلماء للرد على دعوى تعارض العقل والنقل، ومن أبرز العلماء الذين انبروا للرد عليها ابن تيمية في كتابه: «درء تعارض العقل والنقل» فقد رد عليها بأكثر من أربعة وأربعين وجهاً[1].

وأيضاً رد عليها تلميذه ابن القيم في كتابه: «الصواعق المرسلة» بأكثر من مائتين وأربعين وجهاً[2].

ومن الردود التي رد بها ابن تيمية[3] عليها ما يلي:

أولاً: نقض الدعوى التي ادعوها، والقاعدة التي ساروا عليها، وهي: التعارض بين العقل والنقل، ذلك أنهم ذكروا أن الأدلة لا تخرج عن ثلاثة أحوال:

١- أن يكون الدليلان كلاهما قطعيين، فهنا لا نسلّم بالتعارض؛ لأنه غير ممكن.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ٨٦ وما بعدها.

(٢) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٧٩٦ وما بعدها.

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ٨٦ وما بعدها.

٢- أن يكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً، فيُقدَّم القطعي.

٣- أن يكون كلاهما ظني الثبوت، فيقدّم الراجح منهما، **قال ابن تيمية في هذه المسألة:** «فعلم أن تقديم العقلي مطلقاً خطأ، كما أن جعل جهة الترجيح كونه عقلياً خطأ»[(١)]، فلا يسلّم بكلامهم أن الأمر لا يخرج من الأمور الأربعة؛ فهناك حالة خامسة، وهي: تقديم العقلي تارة، والنقلي تارة، فأيهما كان قطعياً قُدِّم، وإن كانا ظنيين قُدِّم الراجح منهما[(٢)].

ثانياً: أن يقال: إذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع؛ لأن العقل مصدِّق للشرع في كل ما أخبر به، والشرع لم يصدق العقل في كل ما أخبر به، ولا العلم بصدقه موقوف على كل ما يخبر به العقل، فمهمة العقل هي تصديق النص، وكونه مزكياً للنص لا يلزم منه أنه أعلى مرتبة منه، أو مقدَّم عليه، وقد شبّه ابن تيمية هذا الأمر بأمر بليغ، حيث شبّه النص بالطبيب الماهر، والعقل بأناس شهدوا لهذا الطبيب بالمهارة، وحصل نزاع بينهم، فهل تقدّم أقوال الشهود على الطبيب بحجّة أنهم هم الذين زكّوه؟ وهل رد أقوالهم قدح في هذا الطبيب؟[(٣)].

ثالثاً: أن يقال: تقديم العقل على الشرع ممتنع متناقض، أما العكس فهو ممكن مؤتلف، فوجب الثاني دون الأول؛ لأن كون الشيء معلوماً بالعقل أو غير معلوم، ليس صفة لازمة له، بل هو من الأمور النسبية، فإن زيداً قد يعلم بعقله ما لا يعلمه بكر بعقله. وقد يعلم الإنسان في حال بعقله ما يجهله في وقت آخر.

والمسائل التي يقال إنه تعارض فيها العقل والشرع جميعها مما اضطرب فيها العقلاء ولم يتفقوا فيها.

فلو قيل بتقديم العقل؛ لوجب أن يُحال الناس على شيء لا سبيل إلى ثبوته ومعرفته، ولا اتفاق للناس عليه.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ٨٧.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ٨٧.

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ١٣٩.

وأما الشرع فهو في نفسه قول الصادق، وهذه صفة لازمة له، لا تختلف باختلاف أحوال الناس[1].

رابعاً: أن يقال: كون الدليل عقلياً أو سمعياً ليس هو صفة تقتضي مدحاً ولا ذماً، ولا صحة ولا فساداً، بل ذلك يبيّن الطريق الذي علم به، وإما كونه شرعياً فلا يقابل بكونه عقلياً، إنما يقابل بكونه بدعياً، إذ البدعة تقابل الشريعة، وما خالف الشريعة فهو باطل.

والشرعي قد يكون سمعي وقد يكون عقلي، فالدليل الشرعي هو ما أثبته الشرع وأباحه وأذن فيه، سواء كان يعرف بالعقل أو بالنص[2].

خامساً: أن يقال: معارضة أقوال الأنبياء بآراء الرجال، وتقديم ذلك عليها هو فعل المكذبين للرسل؛ كما **قال الشهرستاني** في أول كتابه المعروف بالملل والنحل ما معناه: أصل كل شر هو من معارضة النص بالرأي، وتقديم الهوى على الشرع[3].

سادساً: المعارضون للكتاب والسُّنَّة بآرائهم لا يمكن أن يقولوا: إن كل واحد من الدليلين المتعارضين يقيني، وقد تناقضا على وجه لا يمكن الجمع بينهما.

فهذا لا يقوله عاقل، ولكن نهاية ما يقولونه، أن الأدلة الشرعية لا تفيد اليقين، والأدلة العقلية هي التي تفيد اليقين.

ويلزم من هذا القول الإلحاد والنفاق، والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ والإقبال على ما يناقض ذلك[4].

سابعاً: أن من لوازم قولهم: أن الرسول ﷺ ليس له فيما أخبر عن الله، وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر؛ علم ولا هدى ولا كتاب منير،

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ١٤٦.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ١٩٨.

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ٥/ ٢٠٤.

(٤) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ٦/ ٣.

فلايستفاد منه علم، ولا هدى يعرف به الحق من الباطل، فلا يكون الرسول ﷺ أخرجهم من الظلمات إلى النور، ولا هداهم إلى صراط العزيز الحميد، وهذا معلوم بالاضطرار في دين الإسلام بطلانه[1].

ثامناً: أن قولهم متناقض، والمتناقض فاسد، فهم يوجبون التأويل في بعض السمعيات دون بعض، فيقال لهم: ما الفرق بين ما جوزتم تأويله فصرفتموه عن معناه الظاهر البيّن، وبين ما أقررتموه؟[2].

موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح:

العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح، بل العقل الصريح يشهد للنقل الصحيح ويؤيده، **قال ابن تيمية**: «ما جاء عن النبي ﷺ كله حق يصدق بعضه بعضاً، وهو موافق لفطرة الخلائق، وما جعل فيهم من العقول الصريحة، والقصود الصحيحة، لا يخالف العقل الصريح، ولا القصد الصحيح، ولا الفطرة المستقيمة، ولا النقل الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ»[3].

وقال أيضاً: «العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، كما أن المنقول عن الأنبياء عليهم السلام لا يخالف بعضه بعضاً»[4].

وكل خبر يظن أن العقل يحيله فلا يخلو من أحد أمرين:

إما أن يكون الخبر كذباً عليهم وإما أن يكون ذلك العقل فاسداً، وهو شبهة خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح»[5].

وإنما يظن تعارضها: من صدق بباطل من النقول، أو فهم منه ما لم يدل

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ٥/ ٣٥٧ – ٣٥٨.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ٥/ ٣٤٣.

(٣) الرسالة العرشية، لابن تيمية، ص: ٣٥.

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٧/ ٦٦٥.

(٥) الروح، لابن القيم، ص: ٦٢.

عليه، أو اعتقد شيئاً ظنه من العقليات وهو من الجهليات، أو من الكشوفات وهو من الكسوفات»[1].

عواقب تقديم العقل على النقل:

لتقديم العقل على النقل آثار سيئة، وعواقب وخيمة، ومن ذلك:

أولاً: مضاهاة إبليس، فهو أول من قدّم العقل على النقل، ولم ينقد للأمر بالسجود لآدم عليه السلام، قال تعالى حاكياً عنه أنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾[2]، فمن قدّم العقل على النقل، وعارض به الوحي فقد ضاهى إبليس حيث لم يسلم لأمر ربه[3].

ثانياً: مشابهة الكفار: فمن قدّم العقل على النقل فقد تشبّه بالكفار الذين قدّموا العقل على النقل وعارضوا به الوحي في مواضع كثيرة، ومن ذلك: النبوة: قال تعالى حاكياً عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[4].

وقدّموا العقل على النقل وعارضوا به الوحي في القدر، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾[5].

وقدّموا العقل على النقل وعارضوا به الوحي في تحريم الربا، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ﴾[6]، وغير ذلك[7].

---

(١) الرسالة العرشية، لابن تيمية، ص: ٣٥.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٢.

(٣) شرح الطحاوية، لأبي العز الحنفي، ص: ٢٠٧.

(٤) سورة الزخرف، آية: ٣١.

(٥) سورة الأنعام، آية: ١٤٨.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٧٥.

(٧) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٨٩٤ - ٨٩٧.

ثالثاً: التكذيب بالرسل ﷺ وتخطئته، وإبطال دلالة السمع، وسد طريق العلم بما أخبر به الأنبياء والمرسلون، بل تكذيب الكتاب، وما أرسل الله به رسله، ومنع الاستدلال بخبر الرسول ﷺ على شيء؛ لأنه من علم أن الرسول ﷺ صادق، وما أخبر به ثابت، امتنع عن تقديم العقل على خبره[1].

رابعاً: عدم الاستفادة من الوحي شيئاً؛ لأن المقدّمين للعقل على النقل المعارضين للوحي به لا يرجعون إلى الوحي في المطالب الإلهية؛ فصار وجوده عندهم كالعدم، بل أضر؛ لأنهم لم ينتفعوا منه شيئاً، واحتاجوا أن يدفعوا ما جاء به إما عن طريق التكذيب، أو التعريض، أو التأويل[2].

خامساً: فساد العالم وخرابه: فـ«كل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه، وفي أمة إلا فسد أمرها أتم فساد»[3].

سادساً: القول على الله بغير علم: لأن المقدّمين للعقل على النقل، والمعارضين الوحي به ليس عندهم علم ولا هدى ولا كتاب مبين، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨**﴾[4]، وقال تعالى عن المنقادين للوحي: ﴿**وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦**﴾[5] فالذين يقدّمون العقل على النقل، ويعارضون الوحي به ليسوا من أهل العلم.

ومن قدّم العقل على النقل وعارض الوحي به قال الله بغير علم، **قال ابن**

---

(١) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، لابن تيمية: ١/ ١٤٠.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ١٣٦.

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم: ١/ ٥٤ – ٥٥].

(٤) سورة الحج، آية: ٨.

(٥) سورة سبأ، آية: ٦.

قتيبة: «تدبرت مقالة أهل الكلام... فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون، ويفتون الناس بما يأتون، ويبصرون القذى في عيون الناس، وعيونهم تطرف على الأجذاع، ويتهمون غيرهم في النقل، ولا يتهمون آراءهم في التأويل، ومعاني الكتاب والحديث... ولو ردوا المشكل منهما، إلى أهل العلم بهما، وضح لهم المنهج، واتسع لهم المخرج، ولكن يمنع من ذلك طلب الرياسة، وحب الاتباع، واعتقاد الإخوان بالمقالات»[1].

سابعاً: التفرّق والاختلاف والتنازع: فأكثر الناس اختلافاً المقدّمين للعقل على النقل؛ المعارضين للوحي بالعقل، فلا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد في الدين؛ لأن العقول التي حكّموها في الوحي متفاوتة متباينة، فقد يعلم زيد بعقله ما لا يعلمه بكر.

وكلّما ابتعدوا عن الوحي كلما ازادوا تنازعاً واختلافاً، **قال ابن تيمية**: «كل من كان عن السُّنة أبعد كان التنازع والاختلاف بينهم في معقولاتهم أعظم»[2].

ثامناً: الشك والحيرة والضلال والكفر والزندقة: فقد أقر بذلك المقدّمين للعقل على النقل المعارضين للوحي به، فقد أنشد أحدهم:

نهاية إقدام العقول عقال
وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا
وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال أيضاً: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها

---

(١) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص: ٦١.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ١٥٧.

تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن» ثم قال: «ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[1].

وأنشد الآخر:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها

وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر

على ذقن أو قارعا سن نادم[2]

وغير هذين كثيرون ممن سلك هذا المسلك آل أمرهم إلى الحيرة والشك والضلال[3].

وغير ذلك من العواقب الوخيمة لتقديم العقل على النقل.

أثر تقديم العقل على النقل في رد الحق:

سبق أن بيّنا أن العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح، ولذلك من المستحيل أن يرد الحق بعقل صريح، وإنما وقع من وقع في رد الحق بترهات عقولهم، وشبهات أفكارهم.

وإذا ما استعرضنا تاريخ من ردوا الحق بترهات عقولهم، فسنجد أن أول من رد الحق بعقله إبليس، قال تعالى حاكياً عنه أنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾[4]، وقد رد العلماء على هذه الحجة الداحضة -كما سبق أن بيّنا ذلك في بحث سابق-.

وهذه الحجة الداحضة قد اتّخذها أهل الباطل في الماضي والحاضر في

(١) شرح الطحاوية، لأبي العز الحنفي، ص: ٢٠٩ - ٢٠٨.

(٢) إيثار الحق على الخلق، للقاسمي، ص: ١٤٠.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٤/ ٧٢ - ٧٣.

(٤) سورة ص، آية: ٧٦.

رد الحق، وممن اتخذها الكفار في رد الحق الذي جاء به الرسل، واتخذها أيضاً بعض المذاهب والفرق المنتسبة للإسلام، **قال ابن القيم**: «معارضة أمر الرسل وخبرهم بالمعقولات طريقة الكفار» ثم من سلك سبيلهم من المذاهب والفرق المنتسبة للإسلام، **قال ابن القيم**: «فبئس السلف، وبئس الخلف»[1].

وقد ذكر ابن تيمية في كتابه: «درء تعارض العقل والنقل»[2]، **وابن القيم** في كتابه: «الصواعق المرسلة»[3] جملة من المسائل التي جاء بها النقل، إلا أن أهل الباطل رفضوها بترهات عقولهم، وشبهات أفكارهم، بل إن السبب في تألفيهما لهذين الكتابين: الرد على ترهات العقول التي قدّمت العقل على النقل، وجعلت العقل حاكماً، والنقل محكوماً، مدعية أن العقل يتعارض مع النقل.

بل لقد وصف ابن القيم العقل الذي اتخذ ذريعة لرد الحق بالطاغوت[4]، ثم انبرى لكسره وتحطيمه بأكثر من مائتين وأربعين وجهاً.

والمسائل التي أنكرت وردت بترهات العقول كثيرة جداً، ومنها كما أشار ابن تيمية وابن القيم:

أولاً: النبوة، وأن الله بعث بشراً رسولاً، والتوحيد، والأمثال التي ضربها لهم الوحي.

ثانياً: معجزات الأنبياء.

ثالثاً: الأمور الغيبية.

رابعاً: حادثة الإسراء.

خامساً: البعث والمعاد.

سادساً: القدر.

---

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٨٩٨.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ٧/ ٦١ وما بعدها.

(٣) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٨٩٥ وما بعدها، والفوائد، لابن القيم، ص: ٧.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم، ص: ١٠٩.

سابعاً: تحريم الربا وقياس الميتة على المذكاة.

ثامناً: تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة.

وغير ذلك من المسائل التي رُدّت بترهات العقول.

وهذه المسائل -وغيرها- استبعدوها بعقولهم، مع أن ذلك ليس ممتنعاً في العقل(١)، وإنما اهتدي إلى تفاصيلها بالوحي(٢).

والسبب الذي جعلهم يردون الحق في المسائل السابقة وغيرها تقديمهم للعقل على النقل، وجعلهم العقل حاكماً، والنقل محكوماً، والأصل أن يقدّموا النقل، وأن يجعلوه حاكماً لا محكوماً، **قال الشاطبي** مبينا أنه: «لا يجعل العقل حاكماً بإطلاق، وقد ثبت عليه حاكم بإطلاق وهو الشرع، بل الواجب عليه أن يقدّم ما حقه التقديم -وهو الشرع- ويؤخّر ما حقه التأخير- وهو نظر العقل-؛ لأنه لا يصح تقديم الناقص حاكماً على الكامل؛ لأنه خلاف المعقول والمنقول، بل ضد القضية هو الموافق للأدلة فلا معدل عنه، ولذلك قال: اجعل الشرع في يمينك والعقل في يسارك، تنبيهاً على تقديم الشرع على العقل»(٣).

وقد حذّر الله المؤمنين من تقديم ترهات العقول على الرسول الخاتم الذي كلفه الله بالرسالة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١﴾(٤).

قال ابن القيم: «فإذا كان سبحانه قد نهى عن التقديم بين يديه فأي تقديم أبلغ من تقديم عقله على ما جاء به»(٥).

ونهى سبحانه عن رفع ترهات العقل على الرسول البشري المكلف

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ٧/ ٦٢.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم: ١/ ١٤٥ بتصرف.

(٣) الاعتصام، للشاطبي، ص: ٨٤٠.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١.

(٥) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٩٩٧.

بالوحي، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾[1]، فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سبباً لحبوط أعمالهم فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه؟ أليس هذا أولى أن يكون محبطاً لأعمالهم؟[2].

وتقديم ترهات العقل على النقل سوء أدب مع من أوحى الله إليه، **قال ابن القيم**: «من الأدب معه ﷺ: أن لا يستشكل قوله، بل تستشكل الآراء لقوله.. ولا يحرّف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً... فهذا من قلة الأدب معه ﷺ»[3].

وقد أوجب الله سبحانه على العباد التسليم للنقل، والانقياد له، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون معارضته بخيال باطل يسمى: معقولاً[4].

ولولا النقل لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منّة عليهم: أن أرسل إليهم رسله؛ وأنزل عليهم كتبه؛ وبيّن لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشر حالاً منها، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية، ومن ردّها وخرج عنها فهو من شر البرية، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم[5].

وقد ضرب العلماء مثلين في انقياد العقل واستسلامه للوحى الذي جاء به الرسول ﷺ:

---

(١) سورة الحجرات، آية: ٢.

(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم: ١/ ٤١.

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم: ٢/ ٣٦٨.

(٤) شرح الطحاوية، لأبي العز الحنفي، ص: ٢٠٠.

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١٩/ ١٠٠.

الأول: أن العقل مع الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ كالعامي المقلّد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير، فلو عرف العامي المستفتي عالماً فدل عليه عامياً آخر، ثم اختلف المفتي والدال، فإن المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي، دون الدال؛ لأن الدال شهد للمفتي بالعلم دونه، وأنه أعلم منه، بل على العامي الدال التصديق بفتيا العالم، والتسليم له بذلك دون الاعتراض[1].

الثاني: مثله كمثل استسلام الصبي الصغير لأستاذه ومربيه؛ فإنه لا يعارضه ولا يخالفه، بل يجب أن يكون استسلام العقل للرسول أكثر من ذلك بكثير، فإن التباين بين الوحي الذي جاء به النبي ﷺ وبين صاحب المعقول أضعاف أضعاف التباين بين الصبي وأستاذه.

ومن العجب: أن هؤلاء المقدمين عقولهم على الوحي خاضعون لأئمتهم وسلفهم، مستسلمون لهم في أمور كثيرة، ويقولون: هم أعلم فيها منّا، وعقولهم أكبر من عقولنا، فليس لنا أن نعترض عليهم، فكيف جوّزوا الاعتراض على الوحي، بعقولهم مع أن النسبة بين عقولهم وبين الوحي أدنى بكثير من نسبة عقولهم إلى عقول أئمتهم[2].

وما جاء به الوحي من أمور الدين كافٍ لا يحتاج إلى مزيد تقذفه عقول ناقصة، ولا آراء واهمة، فقد جاء الوحي بخير الدنيا والآخرة برمته، **قال ابن القيم**: «ولم يحوّجهم الله إلى أحد سواه، فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها، أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها؟ ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده»[3].

وقد أنكر الله على من لم يكتفِ بالوحي المبين، ولجأ إلى شبهات العقول،

---

(١) شرح الطحاوية، لأبي العز الحنفي، ص: ٢٠٢.

(٢) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٨٩٤.

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٤/ ٢٨٦.

وترهاتها، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[1].

وإذا كان أعقل الخلق على الإطلاق إنما حصل له الهدى بالوحي؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾[2]، فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون نصوص الوحي، حتى اهتدوا بتلك الهداية إلى المعارضة بين العقل ونصوص الأنبياء: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾[3][4].

ولا يجوز عليه ﷺ أن يتكلم بالكلام الذي مفهومه ومدلوله باطل، ويسكت عن بيان المراد الحق، ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه ما لم يبينه لهم ويدلّهم عليه، لإمكان معرفة ذلك بعقولهم، وأن هذا قدح في الرسول الذي بلّغ البلاغ المبين[5].

وعجب أمر هؤلاء المعارضون لنصوص الوحي بعقولهم كيف يوجب أحدهم على عقله أن ينقاد لطبيب يهودي فيما أخبره به من علاجات وطرق استعمالها بما فيها من كلفة وألم مشقة؛ لظنه أن هذا الطبيب أعلم بهذا منه، وأن ذلك العلاج قد يؤدي إلى شفائه، مع علمه بأن الطبيب يخطئ، بل قد يكون ما يصفه له سبباً في هلاكه، ومع ذلك يقبل قوله ويقلّده، فكيف برسول الله الذي لا يقول إلا الحق، ولا يخبر إلا بالحق، ولا يمكن أن يكون في خبره ما يخالف الواقع والحق؟![6].

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٥١، وينظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٨٢٦.

(٢) سورة سبأ، آية: ٥٠ .

(٣) سورة مريم، آية: ٨٩، ٩٠.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم، ص: ٩٧ – ٩٨.

(٥) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ٢٢ – ٢٣.

(٦) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ١٤١.

ومن قال: يجب تصديق ما أدركته بعقلي، ورد ما جاء به الرسول لرأيي وعقلي، وتقديم عقلي على ما أخبر به الرسول، مع تصديقي بأن الرسول صادق فيما أخبر به، فهو متناقض، فاسد العقل، ملحد في الشرع.

وأما من قال: لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقلي، فكفره ظاهر، وهو ممن قيل فيه: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[1]، وممن قيل فيه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[2] [3].

وقد أقسم الله بنفسه على نفي الإيمان عن هؤلاء الذين قدّموا العقل على الوحي؛ لأنه لا يثبت لأحد إيمان حتى يحكّم الوحي في جميع أموره، ولا يعارضه بعقل ولا برأي: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[4] [5].

والنجاة إنما تكون بالانقياد للوحي، لا في ترهات العقول، **قال ابن القيم**:

فعلى عقولكم العفاء فإنكم

عاديتم المعقول والمنقولا

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.

(٢) سورة غافر، آية: ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥.

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: ١/ ١٨٩ - ١٩٠.

(٤) سورة النساء، آية: ٦٥.

(٥) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم، ص: ١١٦.

وطلبتم أمراً محالاً وهو إدراك
الهدى لا تبتغون رسولا
وزعمتم أن العقول كفيلة
بالحق أين العقل كان كفيلا
وهو الذي يقضي فينقض حكمه
عقل ترون كليهما معقولا
وتراه يجزم بالقضاء وبعد ذا
يلفى لديه باطلاً معلولا
لا يستقل العقل دون هداية
بالوحي تأصيلاً ولا تفصيلا
كالطرف دون النور ليس بمدرك
حتى يراه بكرة وأصيلا
وإذا الظلام تلاطمت أمواجه
وطمعت بالإبصار كنت محيلا
وإذا النبوة لم ينلك ضياؤها
فالعقل لا يهديك قط سبيلا
نور النبوة مثل نور الشمس
للعين البصيرة فاتخذه دليلا
طرق الهدى مسدودة إلا على
من أمَّ هذا الوحي والتنزيلا

فإذا عدلت عن الطريق تعمداً

فاعلم بأنك ما أردت وصولا

يا طالباً درك الهدى بالعقل

دون النقل لن تلقى لذاك دليلا

كم رام قبلك ذاك من متلذذ

حيران عاش مدى الزمان جهولا

ما زالت الشبهات تغزو قلبه

حتى تشحط بينهن قتيلا[1]

---

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ٣/ ٩٧٨ - ٩٧٩.

الفهرس


رحمه الله